والى الشرق انظروا ...

ايريس حبيب المصرى

و الى الشـرق انظروا ...

ايريس حبيب المصرى

الاتجاه نحو الأرثوذكسية

مقدمـــة :

إن الشماس الواقف عن شمال المذبح يهيب بنا أن ننظر الى الشرق ليذكرنا بأن « شمس البر » قد انبثقت علينا من الشرق . وهذا الواقع يتوه أحيانا وسط الدعايات وتحت تأثير بريق المدينة الغربية . وإنه لجديرٌ بنا أن نعتز بأن رب المجد شرقى وأن تلاميذه الأولين شرقيون ؛ كذلك كانت الكنائس الأولى شرقية . فلقد امتد الإيمان بالسيد المسيح من الهند (بكرازة توما الرسول) الى آسيا الصغرى وشمال افريقيا قبل أن يصل إلى أوروبا . ولأن هذا الامتداد هو ثمرة تبشير الرسل أنفسهم فقد كانت عقيدة الكنيسة آنذاك عقيدة واحدة هى الأرثوذكسية — والدليل على ذلك أن كل الكنائس الرسولية الشرقية للآن هى كنائس أرثوذكسية . ولهذا السبب كانت الكنيسة الأولى « واحدة وحيدة جامعة رسولية » .

ولقد ظلت الكنيسة على هذه الوحدة لغاية سنة ٤٥١ م . وفى تلك السنة انعقد مجمع خلقيدون الذى انفتحت فيه أول ثغرة فى الكنيسة الواحدة . وكانت هذه الثغرة آنذاك ما بين كنيستى أوروبا (القسطنطينية ورومية) من جهة وبين جميع كنائس أفريقيا وآسيا من الجهة الأخرى . فلما سقطت الامبراطورية البيزنطية أمام الزحف العربى انقطعت الصلة بين الشرق والغرب لعدة قرون .

وظل الشرق حريصا كل الحرص على الوديعة التى تسلّمها من الرسل والآباء الرسوليين . ولكنّ الغرب بدأ يغيّر من سنة ٥٨٩ م . وظل يتصاعد التغيير فى الغرب حتى أوصل الكنيسة الى ما نراه الآن من شيع ومذاهب .

ولما عاودت أوروبا غزو الشرق ابتداءً من القرن الثامن عشر وفرضت عليه سيطرتها السياسية بحدّ السيف استهدفت أيضا أن تسيطر على الكنيسة الأصلية .

وكانت قد حاولت هذه السيطرة أن تجمع خلقيدون فشلت على الرغم من ارتكانها على الاضطهاد . ولكنها فى العصر الحديث استحضرت مع جيوشها من أطلقوا على أنفسهم اسم « مبشرين » . وهؤلاء المبشرون تحت ستار الدين لم يهدفوا إلا الى خطف من استطاعوا اقتناصه من الكنيسة الأصيلة . وهكذا أدخلوا الشيع والمذاهب على الشرق العريق . وكأن هذا الهدف لم يكن كافيا إذ أضافوا اليه ، باللسان والقلم ، نداءات كلها تحقير للكنيسة الشرقية .

على أن الآب السماوى يمهل ولا يهمل . فهو ، له المجد ، لا يدع كنيسته الوفيّة بلا شاهد . وشاء أن يكون الشاهد هو الغرب ذاته ــ فحرّك قلوب العدد الوفير من اللاهوتيين الغربيين الى دراسة الكنيسة الشرقية دراسة خالصة صريحة للتعرّف على واقعها من غير تحزّب . وبعد هذه الدراسة الجدّية وضعوا الكتب والمقالات الضافية عن عمق روحانية الأرثوذكسية التى حرصت عليها كنيسة الشرق فى افريقيا وآسيا .

والصفحات التالية مقتطفات من هذه الدراسات :

١ ــ شهادة كيرشهوف :

إننا ــ وأيم الحق ــ لو عرفنا ما سجّله الباحثون الغربيون سنزداد وعيا بجلال ما سلّمه لنا الآباء من طقوس وألحان وأيقونات ، بل وبجمال الستائر والمفارش والملابس الكهنوتية .

ولنبدأ بما كتبه الراهب الألمانى الكاثوليكى **كيرشهوف** الذى إستُشهد تحت البطش النازى . فهذا المسيحى الذى أيّد إيمانه بدمائه كرّس نفسه لدراسة الأرثوذكسية عن أصولها دراسة انتهت به إلى تأليف خمسة مجلّدات ضخمة عنها . وقد استهلّ هذه المجلّدات بقوله : « ما أوسع الانفتاح الذى تنفتحه الكنيسة الأرثوذكسية لأشعة شمس البر المشرقة عليها طوال السنة الكنسية خلال التسابيح والصلوات . وانفتاح هذه الكنيسة أشبه بفوهة بركان مفتوحة نحو عريسها الإلهى فى تقديمها ذاتها اليه بكليتها . عريسها السيد المسيح الذى تصحبه على مدى

سنيه الأرضية والى مجده السماوى . إنها تقدّم ذاتها لله بوصفها النافورة الملكية النورانية .. تقدم ذاتها الى الملك المسيح الجالس على عرشه تحت قباب سماوية مرتفعة على أعمدة مذهّبة يتضاءل نور الشمس المبهر أمام بهائه . تقدم ذاها للشمس التى لا مغيب لها : شمس بهجتها واستقرارها وطوباويّتها . ففى هذا البهاء يسطع اللاهوت المقدس حتى خلال المادّية البادية للأعين فى الخبز والخمر . » ...

« إن العبادة الأرثوذكسية أشبه بهتاف مستمّر صادر من الظلمة الى النور ، ومن المريض الى الطبيب الشافى للنفوس والأرواح ؛ هتاف من رهبة الموت الى سيد الحياة وأميرها ؛ هتاف من الفقر والعَوَز الى ذاك الذى يملأ الكل » .

« إن هتاف الكنيسة الأرثوذكسية هو صوت العريس نفسه : صوت الحزن العميق الذى هو فى الوقت عينه تسابيح الانتصار للرب الضابط الكل الذى قهر الموت والجحيم ؛ إنها تسابيح الفرح الممتزجة منذ الآن بتسابيح النصر التى يترنّم بها الأبرار فى الفردوس ، إنها الرغبة الملّحة فى التحرر من قيود الزمان والمكان تطلّعا الى المجال الإلهى والحياة فى الملكوت النورانى ... » .

وثمة اختراق آخر له أهميته استطاعه الراهب الشهيد ، وهو أن الكنيسة الأرثوذكسية مغمورة بالروح القدس . فكما نالت والدة الإله نار اللاهوت فى أحشائها هكذا تقف الكنيسة الأرثوذكسية كالعليقة المشتعلة دون احتراق وسط نيران الروح القدس ملقيةً فيها كل ما هو إنسانى لكى يشتعل الى التجلّى والتأله[1] . إنها تتّجه بتسابيح روحانية ملتهبة نحو الصليب من خلال عمق ألم نوبتها : تتجه فى فرح ورعدة معا الى الحَمَل المبذول من أجلنا يوميا . وهكذا نرى أمامنا فى الكنيسة الأرثوذكسية عالميْن متعايشيْن ــ العالم الحى الحاضر على مدى القرون ، والعالم السماوى المقدس الأبدى . نرى الكنيسة التى فى السموات جنبا

(١) التأله هو التسامى الإنسانى نحو الكمال الذى شاءه الخالق حين صنع الإنسان على صورته ومثاله . أما التأليه فمعناه أن يجعل الإنسان من نفسه إلهاً تفاخراً بعقله وبإنجازاته وحده دون الاتكان على مؤازرة الروح القدس .

الى جنب مع الكنيسة التى مازالت تجاهد فى هذا العالم متطلّعة فى لهفة عميقة الى الجمال والسلام الملىء بركة فى العالم السماوى . »

« وإنه ليمكننا أن نتفهّم ، فى العبادة الأرثوذكسية ، كل التعاليم الخاصة بالفداء فى مزيج رائع من العقيدة والحياة . وهذا المزيج ليس نظرية عائمة بل هو مأساة « الله والإنسان » بأكملها يستوعبها المؤمنون بالأشكال والرموز والرؤى التى تخترق أعماق نفوسهم . وهذه العبادة فى شاملیّتها لا تتم كمجرد تكرار آلى بل هى تنساب انسياب الأيام المعاشة . إنها تنبض بروحانية مترابطة متسامية بالسيد المسيح المتجسّد . وإن السرّ فيها يحدثنا عن طريق الصور الحية : صورة حاملى الروح ؛ وعن طريق الرموز التى تقود الروح الإنسانية الى أعلا قمم الجلال الإلهى إذ هى تهزّ أعماق القلب أمام الأعماق اللامدركة . فنستطيع أن نقول بحق إن أعياد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية يمكن تسميتها « الاستعلانات الإلهية » .

٢ ــ ما أورده جوزيف كاسبر :

وثمة راهب ألمانى كاثوليكى آخر اسمه **جوزيف كاسبر** وضع كتاباً بعنوان : « تغيير العالم بالروح الليتورجية التى للكنيسة الشرقية » . وهذا بعض ما جاء فيه :

« إن شئنا أن نعرف ما هى الكنيسة الشرقية فلنتمعّن ليتورجيّتها . ففى كل الرموز الجذّابة ، وفى كل التشكيلات والكلمات الشعائرية ، ترى هذه الكنيسة جلال الظهور الإلهى . فالله يظهر للإنسان . يدخل الى داخله . يقدّسه . يعيد تشكيله على صورته من جديد . وكل ما يُعمل هنا على الأرض هو صورة طبق الأصل لما فى السماء . والليتورجيا على الأرض صورة للّيتورجيا السماوية : إنها الدّوكصولوجيا للثالوث الأقدس اللامفترق يقدمها الإنسان الذى تحوّل الى صورة الثالوث الأقدس » .

« وحين ندخل كنيسة شرقية نحس تلقائيا أننا واقفون فى حضرة الله . حجاب الهيكل (الأيقونوستاسيس) شاهد على السر العظيم الذى يعيشه الإنسان خلال

الليتورجيا . فالإنسان يدخل الى حضرة الله . والله المختبىء فى الأماكن المقدسة يريدنا أن نقترب اليه . وحينما يكون باب الهيكل مغلقاً يقف الإنسان فى انتظار واستعداد . وعند فتح بابه يأتى الله ليرفع الإنسان الى المستوى الإلهى . فالحجاب فى الكنيسة الشرقية ليس حاجزاً . إنه الباب الرسمى الى الملكوت الذى ينقاد اليه الإنسان بالليتورجيا » .

« والعجب أن إنسياب الزمن يصبح بدوره السير الى الأبدية . فالكنيسة الشرقية تصبح أكثر جدةً كلما مرّت عليها السنون . ذلك لأنها تنظر بثبات الى الأسرار الإلهية التى للفادى وتعيشها بإدراك عميق للنعمة الإلهية . فكأنها نجحت فى أن تغلب الزمن فى الليتوريجيا ، وأن تسير نحو الأبدية من جيل الى جيل . إنها تقفز فوق القمم وفوق الأعماق . وتوّحد بين السماء والأرض » .

« والليتورجيات الشرقية هى صرخة التلهّف النفسى نحو الله . إنها تمجيد لا ينتهى للجلال الأسنى . وصلواتها هى هتاف عالٍ من الفرح وتسبيح إلهى عذب . وبعبارة أخرى إن الليتورجيات هى ألحان سماوية مغنّاة بانتصار هنا على الأرض . إنها التعبير والتحقيق للواقع الروحى وهو أنه فى السيد المسيح صار الكلمة جسداً وحلّ فينا . وبذلك أصبحت الأرضيات فى أخوّة مع السماويات . فالأصوات الهاتفة والصلوات الحارّة ليست سوى التعبير العلنى عن الصراع مع الله لكى يتقدّس العالم بحضرته » .

٣ ــ أقوال لويس بوايه :

والى جانب هذين اللاهوتين الألمانيين يقف راهب فرنسى اسمه **لويس بوايه** ، وهو يقول : « إن الليتورجيا الشرقية هى بالضبط عيد مقدس تُستخدم فيه كل الموارد الإنسانية لخدمة المجد الإلهى . ومتى أدركنا هذه الحقيقة عرفنا لماذا تتطلّب كل ما نلقاه من تسابيح وأنوار وأيقونات وبخور وزركشة فى الملابس والستائر والنجف . فهذه كلها ضرورة عضوية للعبادة الشرقية التى تستثير الإحساس بتوقّع الفردوس . والشرقيون أثناء عظمة الصلوات الليتورجية يغوصون فى محيط الشعائر

الروحانية التى لا يمكن أن يعرفها الإنسان إلا بالاختبار . فالليتورجيا الأرثوذكسية تسمو بالمؤمنين لبهائها وشاعريّتها » .

« والأيقونة هى من صميم العبادة الأرثوذكسية إذ تستهدف أن تترجم لنا غاية دينية فى شكل رمزى : إنها تجسيد لسرّ التمجيد الذى ناله الإنسان بقوة القيامة ؛ أو بالحرى وبالأعظم إنها انعكاس لسرّ ظهور الله نفسه بالجسد بوصفه ابن الإنسان فى سطوع ضياء التجلّى . وبما أنه ليس فى مقدور الإنسان أن يصور (السر) ولا أن يرسم السناء االلامخلوق فهو يستلهم السر ويستوحى السناء ليعبّر عنه بالرمز . فالأيقونة إذن لا ترسم واقعية الإنسان وإنما تسعى الى قيادته لرؤيا عالم آخر : إطلالة على السماء . ولهذا السبب عينه كانت الأيقونة جزءً من الكل الذى يقدم للمؤمن كونا جديداً ـــ كون الإيقان بالأمور التى لا تُرى ؛ كون السيد المسيح الممجَّد ؛ الكون الذى تُدخلنا اليه الليتورجيا . وهكذا تستدرجنا من عالم المرئى الى عالم اللامرئى عن طريق المرئيات » .

« ولا وجود إطلاقا فى الشعائر وفى الأيقونات لذلك الإحساس بأن جلال الله مزعج . فالليتورجيا المحتفَى بها على الأرض ليست سوى اشتراك فى التقديسات الثلاث التى يترنّم بها السمائيون بالفرح والتهليل . وحتى أيقونة الصلب تعطى المتأمل فيها سكينة نفسية لأنها تخلو من أية علامة للألم والرهبة مع أنها تصور الفادى الحبيب على الصليب معلّقا . أما السيدة العذراء الباكية فلا وجود لها إطلاقا فى الفن الأيقونى الأرثوذكسى لأنها (أم الفرح) . بينما يقف الشهداء مواجهةً فى هدوء وبابتسامة عذبة ـــ إنهم غلبوا الآلام ونالوا الأكاليل » .

وهناك سِمة هامة للعبادة الأرثوذكسية يلحظها لويس بوايبه وهى : « إن الله الساكن فى النور الذى لا يُدْنَى منه أراد ، على الرغم من ذلك ، أن بنوره نعاين النور ؛ وأن من خلال هذا النور نوهب الحياة . فالله فى كل معاملاته يبدو أن له هدفاً واحداً هو محبته اللانهائية للإنسان . وهذه المحبة الغامرة دفعته الى تنازل حقيقى واقعى هو الحياة على مستوانا والرضى بضرباتنا . لقد جاء الينا وحلّ فينا

لكى يرفعنا الى نفسه . والعجب العجاب فى الليتورجيا الأرثوذكسية هو تشبّعها بالعنصر الإنسانى : فمفهوم الصورة الإلهية هو واقعيّتها فى الإنسان . كذلك لا ينسى الشرق المسيحى مطلقا الهدف من الصليب ــ إنه القيامة : قيامة جسده الروحانى بأكمله من العالم السفلى الى السموات . الى بهاء حضرة الله المحيية . وهو يترنّم بهذا الهدف فى لحن القيامة فيهتف بفرحة واضحة ساطعة « بالموت داس الموت . والذين فى القبور أنعم لهم بالحياة الأبدية » . وفى موكب النصر لصلوات ليلة القيامة يهيب بكل صفوف السمائيين أن يفرحوا معه لأن المسيح قام من الأموات . وهو يسير فى هذا الموكب خلال الخمسين يوما : « من القيامة الى العنصرة ... » .

وبعد جولة فى الأديرة بالصحراء يتساءل : « ما هو الإحساس بالحاجة الى التوبة ؟ » ويجيب : « إنه عزم عنيف على التركيز ، وحالة عميقة مستديمة للتوبة عن فقرنا وخطيتنا . أو هو عملية متواضعة مخلصة منسحقة أمام الله . إنه تعبير صادق من القلوب الهادفة فى جدّية الى المسيحية فى صفائها ؛ والى النجاة من الشهوات والتحكّم الذاتى والتملّك على النفس . فالآباء يعلموننا أن دموع التوبة هى اغتسال النفس أو هى معمودية ثانية . وبتنقيتها من أدناسها تزداد النفس اقتراباً الى الله والى الطوباوية الأبدية . والإحساس بالتوبة خالٍ من العبوس لأن الناسك الحق يستمتع بسلام الله فى داخله فيُفيض على القلب فرحاً وعلى الوجه ابتسامة وضّاءة . »

« ودموع التوبة هى فى الوقت عينه دموع الثقة وتسليم الذات لله . أنها أشبه بالشعور العارم الذى يحسّه المريض بعد أن نال الشفاء . وإن الذين ذاقوا مرارة البعد عن الله ثم عرفوا قربه يتضاعف شعورهم بالفرح لهذا التحوّل . فيقول القديس نيلوس : « إن النواح على الخطية هو حزن مفرح ومرارة شبيهة بالعسل لأنها ممتزجة برجاء صالح . وهى لهذا تجعل أعماق النفس ساطعة بالبهجة كما تجعل كل الأعضاء مزدهرة . » فى حين أن القديس أمونيوس (من تلاميذ أبى الرهبان) يعلمنا بأن الدموع تولّد البهجة ، والبهجة تولّد القوة . فتأتى الروح بثمار كثيرة ،

ويتقبل الله هذه الثمار كرائحة زكية . أما القديس افرايم فيشبه أحزان التوبة بساعة المخاض فيقول : « فى تلك الساعة العظيمة تلد النعمة أمنا الروحية النفس المتيقّظة التى هى على صورة الله . » ألا نسمع خلف هذا التعليم قول رب المجد وهو يهيء قلوب تلاميذه للعمل الكرازى : « المرأة وهى تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت . ولكنها متى ولدت الطفل لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح (يوحنا ١٦ : ٢١) . ومن تعاليم هؤلاء الآباء — وغيرهم — ندرك أن الحزن للتوبة يوصل الى استعلان الأسرار الإلهية والى تحويل النفس لحياة طوباوية فى السيد المسيح . »

« ويزعم البعض أن مثل هذا الحزن يعوزه نشاط البساطة . ورداً على هذا الزعم تقدّم اثنين من الناسكات المصريات هما القديسة مارينا والقديسة سينكليتيكى اللتين كانتا غايةً فى البسالة فى تقواهما كما يشهد بذلك المصارع الباسل أثناسيوس الرسولى . وإن حياة النسّاك لتكشف لنا عن صلة وثيقة متّزنة بين موهبة الدموع وبين صلابة الإرادة . فالنسك الأصيل يؤدى الى التناسق الداخلى للنفس . ولقد جمع النسّاك العظام بين مجموعة عجيبة متناغمة من المتناقضات . جمعوا بين التفاؤل والواقعية مرددين مع البشير : « نعلم أننا من الله والعالم كله قد وُضع فى الشرير » (١ يوحنا ٥ : ١٩) ؛ بين الحماس والحكمة ؛ بين قوة النفس والرقة ؛ بين الطموح والتواضع ؛ بين الرغبة فى الله وبذل الذات ؛ بين محبة القريب مع إنكار الروابط العالمية ؛ بين الإيمان المنطقى والولاء الكامل مع الاستقامة الرقيقة للقلب . وبتأملنا هذه المميزات المتباينة المتناغمة فى آن واحد لا يسعنا إلا أن نعتّز بهؤلاء الآباء » .

« وأجمل ملخص لهذا التباين المتناغم هو الفقرة الختامية لكتاب الأنبا أثناسيوس الرسولى عن سيرة الأنبا أنطونى أبى الرهبان : « إن دموع الانسحاق الحقيقى تمتزج بابتسامة السلام السماوى على وجهه المضيء . لقد كانت لمحيّاه نعمة مذهلة . وإذ كانت نفسه خالية من الاضطراب كانت حواسه الظاهرة كلها فى هدوء . وأدّت بهجة نفسه الى جعل وجهه يسطع كما هو مكتوب : حين يتهلل القلب يضيء الوجه . وبهذه العلامة كانت الجماهير تعرف الأنبا

أنطونى ؛ فلم يكن مضطربا قط لأن نفسه كانت دائمة الهدوء ؛ ولم يكن ساخطا قط لأن ذهنه كان مبتهجا باستمرار . »[1]

٤ ــ البلجيكى روسّو :

ولنلتفت الآن الى **راهب بلجيكى كاثوليكى اسمه روسّو** لنسمعه يقول : « إن رباط قيامة السيد المسيح يربط معاً كل المفاهيم اللاهوتية والحقائق العقيدية لمسيحىّ الشرق ويجمعهم معاً فى تناغم شامل : الموت والقيامة . الأرض والسماء . الناس والملائكة . الأسرار والعبادة . الاجتماعات الليتورجية وحياة الصلاة . الرهبنة والعلمانية . تمجيد السيدة العذراء مع الوعى بأنها « إنسانة » . إكرام القديسين مع الإدراك بأنهم بشر . هذه كلها مترابطة ترابطا عميقا . »

« وإنه بعد الانقسام لم يحدث تغيير إطلاقا فى الكنيسة الأرثوذكسية : لا فى المظهر ولا فى العقيدة . لا فى الممارسات الليتورجية ولا فى الحياة الدينية الشعبية . ومن السهل أن نرى أن الكنيسة الأرثوذكسية ليس لها سوى الأصل الواحد ــ أصل الكنيسة الجامعة الرسولية وهى كنيسة الشرق بكل بساطة ونقاء . »

« ولقد تحّملت هذه الكنيسة صنوفا من الهجوم بصبر واحتمال . وهذه الحياة وسط الضيقات الخارجية من ناحية والحياة الرهبانية من الناحية الأخرى قد حبستها فى قلاية الصلوات مع أنها فى الوقت عينه لم تُنسها واجبها التبشيرى . فالكنيسة الأرثوذكسية ظلت دائما قريبة من الشعب ، ومكرّمة من البسطاء . لقد جمعت بين الحرية والاستقرار ، وهيأت لشعوبها إمكانية الحياة فى جو من الجد والألفة معا . والأرثوذكسى يصلى بوصفه إنسانا كاملا : روحاً ونفساً وجسداً لأن كنيسته تهىء له أن يستعمل كل قواه . إنه يستخدم حواسّه ليعبد بها الله اللامحسوس ؛ ويتلاقى وهو فى الجسد باللاجسدى . فالإنسان مطالَب برسالة تفوق كل خيال : رسالة لا يستطيع تأديتها بقوته الخاصة من غير مؤازرة الروح

(١) الرجاء أن يتمعّن القراء هذا الوصف الصحيح ويقارنوه بتلك الصورة المعوجة التى شاعت بيننا هذه الأيام عن الأب أنطونى

القدس . ولقد أعلن الآباء الكبار أمثال أثناسيوس الرسولى وكيرلس عامود الدين بأن الإنسان مخلوق نودى عليه بأن يسموا الى التأله . وهذا هو الهدف الذى تجسّد من أجله الرب المسيح إذ قد أخذ الذى لنا ليعطينا الذى له ، إنه صار ابن الإنسان ليسمو بالإنسان الى أن يكون ابنا لله ــ أى أن يتأله : والنعمة الإلهية لا تحقق هذا التأله إلا بتجاوب الإنسان وبتسليمه روحه ونفسه وجسده للعمل الخفى الباطنى .. وهذا ما تنادى به الأرثوذكسية فهى الحامل الوفىّ للتقاليد الأصيلة . ويتزايد النداء فى عمقها لأنه حنين المهاجر الى وطنه والعطشان الى ينبوع المياه الصافية » .

« والشرق له نظرة بديعة الى الصليب : إنه يعتبره الغنيمة الكبرى بين غنائم الانتصار . وهو ، لهذا ، يحمله دائما خاليا من المصلوب لأن المصلوب قد تركه ودُفن وقام . فيعيش الشرق تحت ظل المسيح الجالس على عرشه : « البانطوكراطور» ــ ضابط الكل ؛ ويسير فى موكب عيد القيامة على مدى الخمسين يوما وراء الشماس الحامل للصليب الظافر . ولأن الانتصار هو الواقع الذى ناله المؤمن بالرب المصلوب القائم فإن سر القيامة له المكانة الأساسية فى العبادة الأرثوذكسية . وصلوات عيد القيامة تحتل الصدارة بين الأعياد كلها . فتبدأ صلواته مساء السبت وتستمر الى ساعة متأخرة من الليل ؛ بل إنها فى مدينة القدس ، وخاصة فى كنيسة القيامة ، تستمر الى أن ينبثق أول شعاع للشمس لكونه الوقت الذى خرج فيه السيد المسيح من القبر .

« وليتورجيتهم جارفة بالحماس ... (إخريستوس آنستى . .أليثوس آنستى) ــ (المسيح قام . . حقا قام) ، هذه هى هتافة الفرح التى يتبادلونها على مدى الخمسين يوما : ينشغلون فيها بصفة خاصة بالتأمل فى هذه الأسرار المجيدة ــ القيامة . الصعود . حلول الروح القدس . إنه عيد بهيج واحد يستمر خمسين يوما حتى أنهم يمتنعون من صوم يومىّ الأربعاء والجمعة اللذين يصومان خلالهما على مدار السنة . والمفهوم الفريد لهذا كله هو أن القيامة جعلتنا مواطنين لملكوت السموات : إنها جعلتنا أشخاصا سماويين . فنحن نعيش من الآن حياة مُقامة مع

السيد المسيح . ومع أن ملء هذه الحياة الطوباوية مؤجل لفترة إلا أنه يفيض علينا حياة منذ الآن . ويقول ذهبى الفم : (ما بين السماء والأرض هناك تسبيح مشترك عجيب الانسجام : تشكرات وألحان بهيجة تتلاقى فى تناغم تام .) »

« وتتوازى كلمات إغريغوريوس الثيئولوغس مع هذا المعنى ، وتنبض بالمحبة والإيمان ، ومازالت أصداؤها تتجاوب فى قلوب المسيحيين الشرقيين ، وهى : (هذا هو فصح الرب . الفصح . نعم الفصح . إنى أكرر الكلمة ثلاث مرات تمجيداً للثالوث الأقدس . إنه عيد الأعياد . وكرامة الكرامات . إنه يفوق كل شىء كما يفوق بهاء الشمس نور الكواكب . فبالأمس كان ذبح الحمل والأبواب ملطّخة بدمائه : الدماء التى أعتقنا بها من يد الملاك المهلك . أمس صلبت مع السيد المسيح واليوم أشترك فى انتصاره . أمس كنت مائتا واليوم أعيش حياته . أمس دُفنت معه واليوم أتشارك فى قيامته) . »

« وإن يوم الأحد فى الفكر الشرقى هو يوم السرّ الفصحى . يوم التمجيد المرفوع الى الملك المسيح الذى انتصر على الموت . إنه يوم الرب تقام فيه شعائر الاحتفاء بسر القيامة . الاحتفاء بانتصار السيد المسيح الظافر . إنه يوم الأفخارستيا ابتهاجاً بقول الرب صراحةً : من يأكل جسدى ويشرب دمى له حياة أبدية . وأنا أقيمة فى اليوم الأخير (يوحنا ٦:٥٤) . »

« والليتورجيا والسر الفصحى معا إعلان بأن العهد المؤسَّس بين الله وبين آدم الجديد من خلال الفداء قد تحقق لكل فرد شخصيا . فنحن موهوبون لله الآب بالذبيحة العظمى ؛ والآب يهبنا عربون الحياة الأبدية خلال التناول المقدس . ولهذا كله يجب أن نمتلىء بهجة ورجاء . »

ويلحظ الدارسون الغربيون أن الأرثوذكسية تتألف من مختلف الكنائس القومية المترابطة بسيمفونية روحانية ؛ وفى الوقت عينه تتمتع كلٌ منها باستقلالها الذاتى : فليس فيها كنيسة تستأثر بالرياسة ولا شخص له حكم مطلق . ويقدمون على ذلك شهادة لاهوتيّين روسيّين : أولهما ألكسيس كومياكوف الذى يعرّف

الكنيسة بأنها « مجتمع إلهى ــ إنسانى استُعلن له الحق ويعيش بالمحبة . وعلى كل مؤمن أن يتعمق هذا المفهوم لمعنى الكنيسة فيترك أية انعزالية وأى تركيز على الذات من أجل المحبة المتبادَلة فى هذا المجتمع . » وثانيهما فلورقسكى وهو يؤكد « أن الإنسان ، لكى يدخل الى تقليد كنسى حى باعتباره الذاكرة الروحانية التى تربط بين أعضاء الكنيسة وبين سر العنصرة ، لكى يدخل الى هذا التقليد فعلا عليه أن يضحّى بتركيزه على ذاته فى سبيل حياة الجماعية . حياة السرية . حياة التنسك . وبما أن الله شاء أن يجعل الإنسان الكاهن للطبيعة كلها فعليه أن يعيش فى ولاء وتخشّع جديرين بالكهنوت . يعيش بالضمير الكنسى الجامعى الذى يصل به الى الكمال إذ يجعله يمتد الى السِمة المسكونية للتقليد ويحرره من الذاتية . والسبب فى إطلاق كلمة (آباء) على كبار قديسى العصور الأولى يرجع الى أنهم تميّزوا بهذا الضمير الكنسى الجامعى فهم لذلك لهم الحق فى أن يتحدثوا بلسان الكنيسة . »

« والأرثوذكسية فى مختلف البلاد (ثلاثية الأطراف) : إنها وحدة بين كنائس متساوية ؛ وإن طبيعة الكنيسة للأرثوذكسيين ليست شيئا بنصرة بل هى تفهّم باطنى للضمير الكنسى الجامعى ؛ إنه لا يمكن التعبير عن هذا التفهّم إلا بكلمات رب المجد : طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله » (مت ٥:٨) .

٥ ــ الأسقف أوكريدا الأرثوذكسى :

وثمة تعبير عميق قاله **الأسقف أوكريدا** (من رومانيا) وهو : « إن ظن أحد أن المعمودية والأفخارستيا أو أى اثنين غيرهما هما الأسرار وحدهما ، وأن الأسرار ليست سبعة ، فليسأل الله عن هذا الأمر بالصوم والصلاة والدموع فيكشف له الله الحق كما فعل دائما للقديسين . فكل ما علّمنا به من الأسرار المسيحية ليس من تأليفنا بل هو الاختبار المتكرر للرسل قديما وللقديسين مذاك والى الحاضر .

فكما كان فى البداية هو كذلك الآن . لأن كنيسة الله لا تعيش على الآراء بل تعيش على اختبارات القديسين . وآراء الأذكياء قد تكون غاية فى المهارة ومع ذلك

تكون زوراً وبهتانا . فى حين أن اختبارات القديسين هى الحق الصراح على مدى الأيام لأن الرب الإله صادق لنفسه فى قديسيه . »

« وسر بقاء الكنيسة الأرثوذكسية هو تواضعها إذ لا يمكن أن يفشل طريق التواضع . فهذا التواضع هو الذى هيأ السيدة العذراء لأن تصبح والدة الإله . ولقد أعلنت هى نفسها هذه الحقيقة فى كلمتين : « رفع المتواضعين .. » كما هتفت « لأنه نظر الى اتضاع أمته ... » (لوقا ١:٤٨ و ٥٢) . والكنيسة الأرثوذكسية مع تواضعها وارتكانا على التعاليم الروحانية قد تجاسرت على تعليم شعبها عقيدة « التأله » بتقبّلها الحضرة الفعلية للسيد المسيح فى شاملية كنيسته وفى كل فرد شخصيا . إنه يجمع الكل الى واحد ومع ذلك يحفظ لكل فردّيته . »[1] .

٦ ــ لاهوتى انجليزى يتحدث :

ولنتّجه الآن الى لاهوتى انجليزى اسمه **د. فرنس** لنجد أنه نشر كتاباً فى لندن سنة ١٩٥١ بعنوان « **الجمال والقوة** » ، وبعد أن تتبّع فى كتابه هذا الكنيسة الأرثوذكسية وحياتها وعبادتها ، ركّز حديثه فى الفصل الأخير عن « الأرثوذكسية فى العصر الحديث » . ومما قاله : « لقد انتشرت الأرثوذكسية فى العالم كله فى القرنين الأخيرين ــ إنها تمتد من ألاسكا الى أستراليا ومن اليابان الى جوهانسبرج ومن فنلندا الى الصين . ومن العجيب فيها أن هناك عدداً كبيراً من لاهوتييها ضمن العلمانيين . لأن التعليم اللاهوتى فيها هو جزء من ذلك الواجب المقدس : واجب حراسة الإيمان والاحتفاظ بنقائه . والإيمان هو عمل عضوى للكنيسة بأكملها . إنه عمل شعب الله . »

« ومحافظية الكنيسة الأرثوذكسية ليست سلبية حامدة ، بل هى مرنة بشكل عجيب . إنها إحساس عملى بالحراسة وبالائتمان على وديعة الإيمان وعلى حقيقة الاستعلان الإلهى الذى هو هو فى القرن الأول أو العاشر أو العشرين . وهذا

(١) ونظرة ، ولو عابرة ، الى الرسل توضّح لنا هذا الواقع الأرثوذكسى : فقد كان لكل منهم شخصيه واضحة الاختلاف عن غيره ، ومع ذلك فكلهم حصرتهم محبة السيد المسيح وجعلتهم كارزين سواءً بسواء .

الحرص يستهدف المحافظة على الإيمان كى لا ينتقص شيء منه وكى يستلمه الجيل الصاعد كاملا ممن سبقوه . إنه الشعلة المقدسة يستلمها حامل من بعد حامل لتظل على اشتعالها الأصيل جيلا تلو جيل . وخلال العصور الطويلة من الضيق والاضطهاد[٢] كانت الحياة الدينية للأرثوذكس هى حياتهم الجماعية الوحيدة ؛ كما كانت عقيدتهم المسيحية الهدف الأعلى لرجائهم الصامد . وإن توكيدهم على الحق لا على السلطة هو الذى جعل العقيدة أسمى من أن تكون مجرد خضوع . إنها اختبار حيّ لكل الشعب المؤمن ؛ فما دمت تتمسك بعقيدة الكنيسة وتحيا حياة الكنيسة فأنت عضو من أعضاء الكنيسة ــ عضو فى الجسد السرّى الذى للرب القائم . »

« وهناك سِمة هامة من سِمات الأرثوذكسية هى الإحساس بالجمال اللامرئى المنعكس على العالم المرئى ــ وهذا الإحساس لواقعيّته يسيطر عليها . فإدراكها للدين هو الوعى الحيوى بقيامة السيد المسيح . وهدف القيامة فى المفهوم الأرثوذكسى هو تجلّى الكون وإعادته الى جماله الأول والى صلاحه الأصيل . وهكذا وسط التخبّط السائد على العالم العصرى حيث يتحسس الناس طريقهم الى يقينيّات جديدة بين أنقاض الاستقرار القديم تعلن الأرثوذكسية معتقدات محدّدة مرسّخة فى الوقائع التاريخية ومعبّر عنها فى العبادة . إنها على وعى بأن حياتها مطهّرة ومصححة توصل الى التجلّى فى العالم الموضوع فى الشرير (١ يوحنا ٥:١٩) . وإن النهضة الواضحة فى كل الكنائس الأرثوذكسية ، فى كل البلاد التى توجد فيها ، دليل على حيوية لا تنضب ــ فهى مزدهرة اليوم على الرغم من كل ما قاسته من ضيقات واضطهادات . »

« والإيمان الأرثوذكسى ليس ملكا لأية دولة ولا لأية لغة ولا لأية حضارة : إنه إيمان لازمنى شامل . يقدس جميع المتمسكين به ويمكّنهم من التجلّى . إنه الميزان الذى سيدانون به . ولقد وصفه د. رامزاى (أسقف يورك بانجلترا) بقوله : « من

---

(٢) يلحظ المدققون فى التاريخ الكنسى أنه كلما ازدادت أية كنيسة صموداً ورسوخاً ازدادت عليهم المحاربات الشيطانية ، فمضايقة العدو دليل ناصع على ازدهارها .

الصعب أن يجد الإنسان كلمات تعبّر تماما عما يكتشفه الغربى حين يتلاقى بالفكر والعبادة والجو لمسيحىّ الشرق . إنه يجد نفسه يفكر تفكيراً جديداً عن التجدد خلال الضيقات والحياة خلال الموت . فقلب الأرثوذكسية ينبض بالعقيدة التى يعلن أن القيامة قد جاءت بفجر جديد للعالم ، وأن الطبيعة كلها تشارك الإنسان فى هذه الجدة الحيوية . وسيكشف أيضا لمعان الوعى بالوحدة مع القديسين . فالاستشفاع بهم فى الكنيسة الشرقية إن هو إلا الثمرة الطبيعية التى تربط بين من هم على الأرض بمن انتقلوا الى الفردوس . إنها رابطة عائلية . فالمنتقلون والذين مازالوا مقيمين فى الجسد يتلاقون فى السيد المسيح . وأجمل تلخيص لهذه الوحدة تلك الكلمات التى يترنّمون بها فى القداس بعد سرد أسماء القديسين : « إننا ياسيدنا لسنا أهلاً لأن نتشفّع فى طوباوية أولئك القديسين . بل هم القائمون أمام منبر ابنك الوحيد يتشفعون فى ضعفنا ومذلتنا ... » . والجميع هنا وهناك يتشاركون فى تمجيد السيد المسيح الذى يتألف جسده السرّى منهم جميعا . »

٧ ــ أستاذ للاهوت بجامعة جنيف :

والفكر الغربى فى اتجاهه نحو الشرق ليس قاصراً على الكاثوليك والأنجليكان بل هو يشمل البروتستانت أيضا . واليكم مثلا واحداً يكفى فى حد ذاته إذ يأتينا من كاهن **هو أستاذ للاهوت بجامعة جنيف اسمه لاينهاوت** . وقد أصدر كتابا منذ خمس عشرة سنة ركّز فيه على سر الافخارستيا كما يتضح من عنوانه وهو « هذا هو جسدى » . والمذهل فيما كتبه هو أنه نشأ أصلاً داخل كنيسة تنكر سر التحوّل المجيد الذى يحدث للخبز والخمر . ومع ذلك فهو يكرر فى كتابه واقعية هذا التحوّل . ولكى يدرك القراء سعة الاهتمام الذى لاقاه هذا الكتاب يجدر به أن يعرف أنه كتبه بالفرنسية ولم يلبث أن ترجمه الى الانجليزية . فلنتابعه الآن لنرى مدى التغيير الروحى الذهنى الذى تحقق فى عمق كاهن بروتستانتى فيما يلى :

« لقد هتف المرنّم : السماء تحدث بمجد الله » (مز ١٩ : ١) ، كذلك رأى الأنبياء فى مجريات التاريخ كلام الله . والإيمان بالسيد المسيح يقتات باستمرار على القراءة المزدوجة لكلمات الله المكتوبة وتفهّم معانى الأوقات والأزمنة . وينشأ هذا التفهّم عن الاستماع الى (صمت) كلمة الله . إذن فمادام الله كثيراً ما يتحدث بغير اللغة الإنسانية وجب أن نعرف أنه يتكلم «بالسرّ » أيضا . وبما أن الإنسان مخلوق على صورة الله ومثاله فهو أيضا يستطيع التحدث بغير الكلام : ألا يحدث أن ما نريد قوله يمكن التعبير عنه بما نعمل من أعمال وبما نسلك من سلوك ؟

« ومن هذا المنطلَق تستطيع الشخصية أن تجد وسائل للتعبير وللتواصل غير اللفظ » ...

« ونحن نردد الصلاة الربية يوميا — فهل نتمعَّنها؟ " فذاك الذى يقولها بذهن حاضر يتعلم من الطلبة الرابعة فيها (كما فى السماء كذلك على الأرض) كيف يستربط الأشياء المحسوسة باللامحسوسة . يستربط شاملية العطايا الموهوبة له وللخليقة كلها من الله بحياته الباطنية الخاصة . والسيد المسيح يعرف أن الإنسان لا يستطيع أن يحقق مقصده إلا فى الجسد طالما هو فى هذا العالم . فهو لم يقل لموسى إن الإنسان لا يحيا بالخبز وإنما قال : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله (تثنية ٨ : ٣ ومتى ٤ : ٤) . فالخبز الذى يقوت الإنسان حقا هو الخبز الذى يتضمن عطية الله . وهكذا تلتحف الماديات بشخصية جديدة ينساب فيها الواقع مع الروحانية فى المجرى الإنجيلى . الواحد مدعميْن بأعمال الرب وأقواله . »

« والصلة التى نرتبط بها بالسيد المسيح تتخذ انطلاقتها من ذات بلحم ودم منشغل بواقعية الإنسان الكاملة لأنه اتخذ هذه الواقعية لذاته . ومن هنا يجب أن ندرك أننا لسنا نحن الذين يسترجعون التاريخ لينضموا الى السيد المسيح ، بل هو الذى ينحدر الى التاريخ لينضم الينا . وهذا هو المعنى النهائى للعشاء الربانى .

فهو بتعييده الفصح أدخل عليه أعجب تغيير . وهذا التغيير عجيب الى درجة تقنعنا بأنه إنما عيّد الفصح ليُدخل عليه هذا التغيير العجيب . إنه يستعمل التقاليد كأطار . ولكن ما يقيمه فوقه جديد كل الجدة : الجدة عينها التى أعلنها لموسى حين قال له بأن الإنسان يحيا بكل كلمة تخرج من فم الله . وبما أن التاريخ لا يستنفذ النعمة فالكلمة الله لا يكف عن أن يكون معاصراً وفعّالا معا . »

« وكلماته » « هذا هو جسدى » فى اطار الوجبة المكرّسة للفداء تشير بوضوح الى الخلاص : إنه يعلن نفسه ضحية التقدمة للفداء المتوقَّع ؛ وهو أيضا لا يربط بين نفسه وبين خروف الفصح بل يضع التوكيد على جسده . ويقول دارسو اللغة الأرامية إن الكلمة التى استعملها السيد المسيح تعنى أكثر من الجسد : إنها تشير الى الشخصية فى شمولها إذ أنها مرادفة لضمير المتكلم « أنا » . وهذا الترابط بين الجسدى والروحانى ذو قيمة تعليمية عظمى . ونجد توكيدها مراراً وتكراراً فى انجيل يوحنا ، ففيه يستثار الروحانى التاريخى معاً دون أى فاصل بينهما ، بل إن تماسكهما هو النغمة السائدة من بدايته الى نهايته . »

« وواضح أن السيد المسيح اختار الخبز ليجعل منه وسيلة التعبير عن إرادته فى استمرار حضرته مع التلاميذ بعد الافتراق . فلن يروه بعد ذلك ولكن حضرته ستستمر ، وستستمر فى أن تكون كما هى الآن : جسمية . وبالاختيار الذى يتخذه لهذه الحضرة والإرادة التى يعبّر بها عن موقفه نحوها يجعل هذا الخبز العضو المعبّر عن شخصه وعن تواصله المستمر مع الآخرين ـــ أى مع كل الذين يؤمنون به الى آخر الدهور ـــ تواصله بجسده . إنه يتجسد فى هذا الخبز الذى يعطيه. إذن فالخبز على مستوى تركيبه المادى قد أصبح شيئاً آخر لأن السيد المسيح اختاره فى اللحظة التى سيترك فيها تلاميذه ليجعل من ماديّته الأداة لحضرته . وفى ضوء هذه الإرادة تجعل كلمة المسيح يسوع المعبّرة عنه شيئا آخر لم يكُنْه من قبل وما كان ليكونه من غير هذه الإرادة وهذه الكلمة . »

« وحقيقة الأشياء أمام المؤمن لا تنتهى عند الاختبار والملاحظة لأن لطبيعتها النهائية الأساسية ترتكن على صلتها بالله . والإيمان يقوم بهذه المجازفة الخطيرة

الحرية معا . فالخليقة هى عمل الله . ووظيفتها هى تحقيق غرضه . وغرضه هو للمحبة . ومن هذا المنطّلق تكون واقعية حقيقية الأشياء موجودة فيما يريده الله لها ؛ وكينونتها فى نهاية الفحص هى ما يعطيه الله خلالها للإنسان . وبعبارة أخرى إن جوهر الحقيقة هو فى القصد الإلهى الممكن تحقيقه خلالها . ولا يتفهّم هذا الجوهر غير الإيمان . والإيمان لا يرتضى بما يراه ، إنه الإيقان بأمور لا تُرى ، وهو يرحّب بالكلمة العليا الصادرة له من ذاك الذى يقصد أن يعطى الخبز هدفا جديداً لم يُسمع به من قبل . »

« وإنها لساعة قدسية رقيقة رهيبة حين يواجه التلاميذ إرادة السيد المسيح ويتفهّمون حضرته واقعيا بواسطة شىء معين . وإرادته هى أن جسده الذى سيختفى فى شكل معين سيستمر بين خاصته فى شكر آخر . والإيمان المطلوب من التلميذ هو : **أولاً** وقبل كل شىء أن يؤمن بأن المسيح يسوع يريد أن يبقى جسده فى وسط أخصائه . فهذا مؤكد بصراحة تامة فى كلماته وفى أطار الشعائر التى تقال من خلافها . **ثانياً** فالإيمان المطلوب من التلميذ هو أن يؤمن بأن ما يرغب فيه السيد المسيح فهو يقن أن يحققه تماما . »

« والمضمون لما قلنا هو أن السيد المسيح يقصد بالخبز الذى يوزعه هدفاً غير هدفه الطبيعى . وهذا التفسير سيؤدى بنا حتما الى الوعى بأنه — له المجد — يسيطر على الحقيقة بطريقة لم تكن معروفة قبلا الى درجة أن سلطانه يكفى لأن يحدد للأشياء أهدافاً جديدة . بل إن هذا التفسير يعترف صراحة للسيد المسيح بسلطانٍ مساوٍ للكلمة التى فاه بها الله الآب فوق الغمر (فى البدء) لكى يحدد له نظامه وهدفه . »

« فما يعطيه الرب هو جسده لأنه هو معطيه . وما يعطيه هو جسده . هو حياته . هو شخصه . وهو ، له المجد ، قد قصد الى أن يبين بأن العمل الذى أنجزه بإعطائه الخبز يحقق الهدف عينه الذى لكرازته بأكملها . »

« ويجب أن نتيقّن بأن أعمال الله مع تداخلها داخل الزمن التاريخى هى فى

الوقت تعلو فوقه . لأن المقاصد التى تكشفها تعطيها ديمومة . إنها تحتفظ باستمرارية واقعية . والإيمان يرى أن استمرار عملية الفداء ليس فى تتابع الوقائع بل هو فى ديمومة العمل الإلهى الذى انتجها . »

« ومن الضرورى التوكيد على الوحدة الوثيقة بين العشاء الربانى وبين كرازة الرب فى شاملها . ففى مجيئه وفى مسلكه هدف الى التغلب على المسافات ونزع الحواجز التى أقامتها الخطية ، وهو فى هذا كله دفع نفسه ثمنا لهذه العملية . وحين قال « اصنعوا هذا لذكرى » لم يقلها لتكون مجرد استعادة عقلية ولا فكر للتأمل . وإنما الذكرى التى هدف اليها معناها استعادة موقف مضى وجعل هذا الموقف حاضراً واقعيا . ففى هذا الخبز الذى يعطيه لهم يعطى المسيح يسوع نفسه بالضبط كما سلّم نفسه لصالبيه . وهو أعطاه لهم بكلمات شعائرية . إذن فالشعائر الليتورجية هى أيضا امتداد لما حدث . ومن يتعرض على إمكانية فاعلية الشعائر يعترض فى الوقت عينه على سلطان الله ... »

« وليسمح لى القارىء بأن أكرر القول إنه يكفى أن السيد المسيح قال هذا لكى يصبح أمراً محققا فعلا ؛ فهو حين أعطاهم الخبز قائلا هذاهو جسدى أعطاهم جسده فعلا لا تشبيها ولا مجازاً . ومذاك لم تكف إرادته عن دعوة المؤمنين الى العشاء نفسه . إنه يرحب بهم ويريد منهم الاقتراب اليه . وهو يدعوهم عن طريق الشعائر الليتورجية التى رسمها لهم هو شخصيا . فخارج العمل الليتورجى لا يوجد غير الخبز ، أما الليتورجيا فهى الوسيلة الوحيدة لتحقيق التحوّل . »

« إن انجيل التجسد ينتهى بكلمة « طوبى لمن آمنوا ولم يروا » (يوحنا ٢٠:٢٩) . لذلك على المؤمن أن يتمعّن هذه الكلمة . لأن السيد المسيح لم يرد تأمين استمراره مع خاصته بشىء تركه لهم . ولكنه شاء أن يؤكد دوام حضرته بعمل أكمله وفيه أعطى ذاته . واللقاء مع السيد المسيح حول المائدة الفصحية وإن كان فرديا إلا أنه جماعى فى الوقت عينه ؛ إنه لقاء مع الكنيسة فى شاملها : الغائبين والحاضرين والآتين من بعدهم على مدى الأجيال . وليست هناك لحظة

تتضح فيها جامعية الكنيسة فى جلاء ووضوح كما يتضح فى تلك اللحظة التى يجمع فيها السيد المسيح الكنيسة ــ كنيسة الماضى وكنيسة الحاضر وكنيسة المستقبل . إنه ، له المجد ، يجمع فى روح واحد الكثيرين المتطلعين نحوه الذين تستهدف محبته أن تجمعهم . »

« ونحن نعرف أن السيد المسيح يأتى ليلتقى بالإنسان : إنه يضم فى صحرائه الداخلية الخراف الضالة التى لولاه لماتت من الجوع . على أننا يجب أن نذكر أن عمل النعمة يتطلب تعاونا متضامنا : فالفاعل الأول هو منبع السر وهو السيد المسيح ؛ أما الفاعل الثانى (وهو الإنسان) فيجب أن يعلو به الى المستوى الروحى الذى يجعله جديراً لأن يتناول السيد المسيح ذاته . وتمحيص المحبة يأتى بنا الى مستوى لائق بالعلاقات الشخصية . فليس هناك (سبب) و (نتيجة) وإنما مجرد حوار بين المسيح يسوع وبين النفس فى عمق ذاتها ــ والمغلوب من المحبة هو الذى سيعيشها . »

٨ ــ ليف جيلييه :

ليس من شك فى أن عدداً غير قليل قد سمع باسم **الأب ليف جيلييه** لأن البعض من كتبه قد تُرجم الى العربية . وهو فرنسى المولد كاثوليكى المنشأة اجتذبته الأرثوذكسية بغنى تقاليدها وعبادتها . وبعد انضمامه اليها وضع كتاباً بعنوان « الروحانية الأرثوذكسية » ، يميّز فيها أربعة عناصر رئيسية : « ١ ــ العنصر النابع من الأسفار الإلهية . فكلمة الله مازالت الأساس الراسخ لكل هذه الروحانية « قدسهم فى حقك . كلامك حق هو . » (يوحنا ١٧:١٧) . فجوهر العقيدة والليتورجيا فى الكنيسة الأرثوذكسية هو الأسفار الإلهية : إنها كنيسة الكتاب المقدس . فقد نصحت أولادها ، بل علمتهم ، قراءته يوميا[1] . ومن ثم نجد بين

(١) مما يجدر تسجيله أن أمى ــ فى سنواتها الأخيرة ــ اضطرت الى ملازمة الفراش . وكان إخوتى آنذاك قد تزوجوا فلم يعد فى البيت معها غيرى . وكنت قد انهمكت فى كتابة « قصة الكنيسة القبطية » مما استلزم السهر الى ساعات متأخرة من الليل وكان المكتب الذى أكتب عليه فى حجرة النوم . وإذ ترانى مشغولة تصلى وتنام . وفى الصباح تسألنى : « هل قرأت الانجيل قبل أن تنامى ، هل قرأته جهراً أو فى سرك ؟ » أجيبها : « أنت نائمة . وليس هناك أحد معى . فقولى لى ياماما لمن أقرأه جهراً ؟. ويأتينى ردها فى ثقة وتوكيد : « تقرأينه جهراً لكى تفرح الملائكة بسماعه . »

الشعب الساذج اللامتعلم صلة شخصية وثيقة تربطهم بكتاب الله . »

« ٢ ــ والعنصر الثانى لهذه الروحانية هو محبة الكنيسة الأرثوذكسية محبةً عظمى للكنيسة الأولى ولبطولة شهدائها ؛ بل لم يغب روح الاستشهاد عنها مطلقا . **وحين قامت الشيوعية وجدت الكنيسة الروسية نفسها حمراء بدم شهدائها كالكنيسة الأولى تماما** . وروح الاستشهاد ليس قاصراً على من سفكوا دماءهم وحدهم لأن النساك هم أسمى المصارعين بطولةً . والعجيب أن السِمة المميزة لهم هى البهجة : روح البطولة والمجالدة والتوقّع الملتهب للظهور الثانى . فالحياة فى الدهر الآتى ، بالنسبة للأرثوذكسى ، ليست ملحقا للحياة الأرضية التى ليست سوى مقدمة للملكوت . ولقد تغلغلت الرهبنة الى أعماق روح الكنيسة الأرثوذكسية وتنبع من كلمات الرب : « إن شئت أن تكون كاملاً فاذهب بع كل أموالك وأعطها للفقراء وتعالى اتبعنى » (متى ١٩:٢٦) . والمثل الأعلى للرهبنة هو نفسٌ اشتعلت فيها المحبة لله وللناس اشتعالاً أحرق كل هاجس نحو الذات . وقد ظل هذا المثل الرهبانى الأسمى فى الكنيسة الأرثوذكسية الى اليوم . ولما كان الأرثوذكسى مقتنعا بأن الهدف الأول الذى يسعى اليه هو الحصول على الملكوت فهو ملتزم بأن يقف وجهاً لوجه مع الله فى صمت وهدوء وتعبّد .

٣ ــ أما العنصر الثالث فهو التأمل الذى وجد أسمى تعبير له فى حياة المكرسّين للهذيذ المستهدفين التأله . والروحانية الأرثوذكسية تقدم نورها المفرح لكل من يريد الاهتداء به . وتقويمها الكنسى هو الأطار للسنة كلها الذى تتشكك داخله جميع مراحل الحياة الأرضية للفادى الحبيب . ويربط اللاهوتيون الأرثوذكس بين التقوى الليتورجية وبين التعليم عن طبيعة السيد المسيح والتنسك ربطا مبدعاً . وجدير بالذكر أن الأسرار فى الكنيسة الأرثوذكسية ليست رموزاً لأمور إلهية بل إنها العطية لحقيقةٍ روحية مرتبطة للعلامة الحسية . فهى تؤمن بأن فى هذه الأسرار تكمن النعمة عينها التى حلّت فى العلية والتى مُنحت على شاطىء الأردن حيث عمّد تلاميذ السيد المسيح وفى إعلانات المغفرة التى نالها الخطاة من فم المخلص مباشرة أو بواسطة تلاميذه . ولهذه العطايا الروحية ناحية نسكية هى أن الأسرار

المقدسة لا تثمر ثمارها داخل الروح الإنسانية إلا متى كانت هذه الروح مستعدة لها وموافقة عليها . »

« ٤ ــ والافخارستيا لها مكانة فريدة فى الكنيسة الأرثوذكسية التى تؤكد أن السيد المسيح هو الكاهن اللامرئى[1] وهو الحمل المذبوح فى آن واحد : (لأنك أنت هو الواهب والهبة . أنت تتقبلّنا وفى الوقت عينه موزِّع بيننا أيها المسيح إلهنا .) »

« اما لقمة البركة فتمثل شخصا مسيحيا معينا سواءً من المنتقلين أو من الحاضرين وقد مُسحت كلها بالدم الزكى . وأكل لقمة البركة معناها وحدة المسيحيين جميعا مع ذبيحة السيد المسيح . »

ويختتم الأب ليف جيلييه كتابه برنين الفرح المتلهّف : « إن نوراً بهيجا من المجد الأبدى للآب يسطع على الأرثوذكسية . إنه نور التجلّى . نور القيامة . لأن الحياة الأرثوذكسية هى نبع النفس ونور الفجر . وهذا الانتعاش ، وهذه الجدّة للحياة فى السيد المسيح التى تنبع من المعمودية والاعتراف والافخارستيا المقدسة قد عبّر عنها الآباء الأولون برموز النعمة : الملابس البيضاء . الشموع المضيئة . الأيقونة الرقيقة ... »

« والفن الأيقونى الأرثوذكسى ليس فنّا ماديا واقعيا ؛ إنه فن روحانى ينطلق من عمق الفنان ليذكّرنا بأننا مواطنون للملكوت . وهو ، بهذه التذكرة ، يتناغم مع الطقوس الكنسية والتقاليد الآبائية : إنه بدوره يفتح لنا إطلاله على السماء . »

٩ ــ شابة أمريكية :

وهناك مثل خاص له روعته ولو أنه مثل عن شخصية فردية . فلقد حدث صيف سنة ١٩٨١ أن ذهبت الى نيوجرزى لزيارة أختى المريضة « ايفا » (رحمها الله) . والكنيسة التى تحمل اسم كاروزنا العظيم مارمرقس بتلك المدينة هى أول

(١)راجع « قصة القمص بيشوى كامل : إشعاع مغناطيسى » للمؤلفه ص ٤٩ رقم هـ ، نشرته مكتبة كنيسة مارجرجس بسبورتنج (الاسكندرية) فى مارس سنة ١٩٨٧ .

كنيسة قبطية فى الولايات المتحدة . وكنا نحضر القداس الإلهى فيها . وهى كنيسة تعلو قاعة فسيحة يجتمع فيها الشعب لمختلف المناسبات .

وذات يوم ، ونحن نازلون على السلالم بعد أن قال لنا أبونا غبريال أمين : « إمضوا بسلام سلام الرب معكم » ، فوجئت بشابة أمريكية تحتضننى وتقبلنى على الخدين ! وتأملتها فى دهشة واضحة . فقالت لى : « أنت على حق لأن تندهشى لأنك لا تعرفينى . ولكنى أنا أعرفك . فقد قرأت كتابك »[1] .

وتتلخص قصة هذه الشابة فى أنها نشأة كاثوليكية . ثم أراد شاب قبطى أن يتزوجها بشرط أن تتم شعائر الاكليل المقدس فى كنيستنا القبطية . فوافقته .

ولما تزوجت أرادت أن تتعّرف على الكنيسة التى تمسّك بها زوجها الى هذا الحد . لذلك واظبت على حضور القداس الإلهى وغيره من الشعائر الكنسية . وانتهى بها الأمر أن أحبت هذه الكنيسة الأصيلة الى درجة أنها حين ولدت بنتها قالت لزوجها : « بالطبع ستنال ابنتنا المعمودية فى كنيستنا التى باركت زواجنا » . وفرح الزوج لمحبة زوجته كنيسته الى هذا الحد . كذلك دفعتها هذه المحبة الى أن تصبح خادمة أمينة مثابرة .

وراقبت أم الشابة بنتها لفترة ثم لم تستطع السكوت ، فقالت لها : « أهكذا تنسين الكنيسة التى نشأت فيها لأجل زوجك ؟! » أجابتها : « لا . لم أنسى كنيستى بسبب زواجى . لأن الواقع أننى وجدت نفسى حين وجدت الكنيسة القبطية[2] » .

ويؤسفنى أن أقول إن أبطال هذه القصة رفضوا السماح لى بذكر أسمائهم .

---

(١) من نعمة الله على المؤلفة أن منحها كتابة تاريخ الكنيسة القبطية بالانجليزية ، طُبع أولاً فى القاهرة سنة ١٩٧٧ تحت رعاية الأسقف الشهيد أنبا صموئيل ؛ وطُبع ثانية فى نيويرى سبرينجز (بكاليفورنيا) سنة ١٩٨١ بناء على توصية القمص بيشوى كامل راعى كنيسة مارجرجس بسبورتنج برمل الاسكندرية .

(2) I found myself when I found the Coptic Church.

١٠ ـ كيرلس مقار :

ولنعد الآن الى مصرنا الحبيبة التى لا يحلو الكلام من غير ذكرها . فنجد أنه حدث فى مستهل باباوية الأنبا كيرلس الخامس أن داهمه الكرسى الرومانى برسامة بطريرك باسم كيرلس مقار من بنى مصر الذين اقتنصوهم بعيداً عن أمهم الأصيلة . وحالما تسلّم هذا البطريرك مهامّه الكنسية نشر منشوراً رعويا يناشد فيه الأرثوذكس الأوفياء لكنيستهم فى مصر وفى اثيوبيا الانضواء تحت زعامة البابا الرومانى . وعلى الفور أصدر البابا الوقور بيانا مسهبا أوضح فيه العقيدة الأرثوذكسية بجلائها كما أثبت أن مارمرقس هو أحد السبعين تلميذاً الذين عينّهم الرب وأرسلهم للخدمة . وطبعت الدار الباباوية عدة نسخ من هذا البيان وزعتها على الآباء المطارنة والأساقفة ؛ وهم بدورهم وزّعوها على الكهنة الذين قرأوها فى الكنائس على مسامع الشعب .

وكان كيرلس مقار دائم البحث والاطلاع عملاً بوصية الرب « فتشوا الكتب » . ونتيجةً لبحثه المتواصل اقتنع بأصالة العقيدة الأرثوذكسية فعاد اليها . وقد ظن فى بادىء الأمر أن قداسة الأنبا كيرلس لن يقبله ضمن أبنائه بسبب كتاباته وأقواله السالفة ضد الكنيسة القبطية . فقصد الى البطريرك فوتيوس اليونانى المقيم بالاسكندرية ومع أن هذا البطريرك رحّب بقبوله إلا أن الحكومة اليونانية رفضت رفضا باتا أن تقبله !

وعلى أثر ذلك سافر كيرلس مقار الى بيروت . وهناك وضع كتابين على جانب من الأهمية إذ قدّم فيهما الدليل بصراحة مذهلة على مدى اقتناعه بالأرثوذكسية . والكتابان بالفرنسية : أولهما « الوضع الإلهى لتأسيس الكنيسة » فى جزئين ، طبعهما فى جنيف . وثانيهما « من أجل الحقيقة » . ثم أتبعهما بكتاب ثالث (بالفرنسية أيضا) بعنوان « أخيراً نتكلم » ردّ به على بعض ما نشره الكاثوليك فى مصر .

وحين عاد كيرلس مقار الى الأرثوذكسية عادت معه ثمانون عائلة وانضمت الى

الكنيسة القبطية . وأشهرها عائلة العتر . ومن ثَم أصبح فرنسيس العتر أرشيدياكون لكنيسة القديسيْن بطرس وبولس (الشهيرة بالبطرسية) حيث خدم ما يزيد على نصف قرن . وكان ذا صوت رخيم رنّان يهزّ القلوب .

ثم حدث أن ذهب بعض كبار القبط ومعهم فرنسيس العتر لأخذ بركة البابا الجليل كيرلس الخامس . وما إن علم غبطته بأنهم إنما جاءوا ليطلبوا اليه انضمام الحَبر الكاثوليكى الى الكنيسة القبطية حتى قال لفوره : « إعلم يافرنسيس أن هذه كانت أمنيتى من أول الأمر . ولكنكم تسرّعتم فى طرق باب الكنيسة اليونانية . وإذا كنت لم أحرّك ساكنا يوم ذاك فما كان هذا إلا محافظة على المحبة التى تربطنى بالسيد فوتيوس . » ثم كوّن قداسته لجنة للذهاب الى بيروت واستصحاب كيرلس مقار الى القاهرة . على أنه من المستغرَب أن وصلت برقية تحمل خبر انتقاله المفاجىء الى مساكن النور وكان ذلك سنة ١٩٣٠ ، وقد أشيع بأنه مات مسموما[1] .

ولقد تألفت لجنة برياسة أنبا مكاريوس مطران أسيوط وترجموا كتابه « الوضع الإلهى » الى العربية .

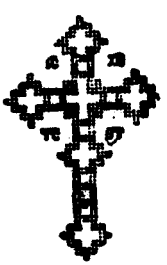

(١) سلسلة مقالات لفرنسيس المعترض « ترجمة مثلث الرحمات البطريرك كيرلس مقار بطريرك الكاثوليك وبطل الأرثوذكسية » ، مجلة تعاليم الكنيسة : مايو ويونيو ويولية سنة ١٩٥٣ — ص ١٧—٢٥ و ٢٠—٢٢ و ٦—١٦ ؛ « قصة الكنيسة القبطية » للمؤلفة حـ ٥ ص ٤٦—٤٩

الفن الأيقونوغرافى

مقدمـــة

نقرأ فى سفر الأعمال أن « الذين تشتتوا جالوا مبشرين » (٨:٤) . ونعلم أنهم تشتتوا نتيجة للاضطهاد . فهم جعلوا من الضيق فرجا ومن الاضطهاد الموجع فرحا . إنهم وجدوهما فرصة مواتية للكرازة . وهذا الذى فعله الرسل المباشرون، فَعَله رسله فى القرن العشرين. فلقد اضطهد الشيوعيون المسيحيين فى روسيا واضطروهم الى أن يتشتتوا . فماذا فعلوا فى شتاتهم ؟ بنوا الكنائس . وفتحوا الاكليريكيات . وكتبوا الكتب والمقالات لتوعية العالم الغربى بالأرثوذكسية . ولم ينسوا قط أنهم روس . فكتبوا كل ما كتبوه بالفرنسية والانجليزية والروسية . ومن أعمق ما نشروا مجلة تصدرها « جماعة القديس يوحنا الدمشقى » أربع مرات سنويا بعنوان « جورنال الفن المقدس » نأخذ عنه المقالات الأربع التالية لنرى منها مدى تقييمهم للفن الأيقونوغرافى عن تعمّق وتعبّد .

١ ــ « رسالتنا فى الأيقونوغرافية للأرشمندريت كبريانوس »[1] :

إن الإنسان المعاصر يطلب من الأيقونة الجمال الجسمى لا الجمال الروحى كما يطلب مطابقتها للواقع العالمى . وهناك من يرتضود بصورة فتوغرافية بدلاً من الأيقونة . على أن الأيقونة هى رمز ؛ إنها روح اقتنصها الفنان داخل ألوانه ؛ إنها عظة صامتة ولاهوت بالصور ؛ إنها تعلن بهجةً لا مدركة للعالم إذ هى شحنة من الحيوية بالألوان . ولأننا لا نستطيع أن ننكر روحانية التنسك التى تتضمّنها الأيقونة فنحن نقف حيارى أمامها ونتساءل : كيف تناسق النسك مع الألوان الحية الساطعة ؟ ما هو السرّ لهذا التواجد بين الحزن العميق والفرح المتهلل ؟ والأيقونوغرافى يعبّر عن القوة غير العادية والسلطان للروح على الجسد رمزيا بواقع مذهل نراه فى العينين الساطعتين ضمن وجه راسخ ، وبهذا التصوير يذكروننا بأن السيد المسيح فى ذاته جمع بين الحزن والفرح .

(١)المجلة المذكورة ، حـ ٤ عدد ٣ (يوليو . أغسطس . سبتمبر) سنة ١٩٨٣ . والمقال مكتوب أصلاً بالروسية وترجمه الى الانجليزية جورج لارداس .

وهناك من يعترض بتساءله : فالحاجة الى الأيقونات والستائر والملابس الكهنوتية المزركشة مادام الله يطلب القلب ؟ صحيح إنه يطلب القلب . ولكن لماذا أعطى موسى تفصيلات دقيقة لبناء الهيكل وكل مستلزماته ؟ وللابس هرون والكهنة اللاويين ؟ وبعد أن أعطاه كل المواصفات قال له : « وانظر واصنعها على مثالها الذى أُظهر لك على الجبل . »[٢]

ومن العجب بمكان أن هؤلاء المعترضين حين يدعون أصدقاءهم حتى لتناول الشاى معهم يفرشون المائدة بأجمل مفرش عندهم ويضعون باقات الزهور فى مختلف الأركان . فهل هذه ضرورية للأكل والشرب ؟ طبعا لا . ولكن الخالق المبدع جميل يحب الجمال . وقد عبّر عن جماله وعن محبته للجمال فى مختلف خلائقه . ألم يقل لنا الوحى الإلهى بأن الله « رأى كل ما عمله فإذا هو حسنٌ ـــ وكرر هذا القول خمس مرات ، وفى آخر مرة رآه حسنا جداً[٣] . بينما يخبرنا أشعياء النبى عن رؤياه بأنه « رأى السيد جالساً على كرسى عالٍ ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل »[٤] . والأبدع من هذا كله وصف الرآئى للعرش الإلهى[٥] .

وبما أننا مخلوقين على صورة الله ومثاله فنحن نحب الجمال . إذن يجب أن ننمى فى أنفسنا وفى شعبنا تذوّقه لذلك النوع من الجمال فى الكنيسة حيث يتكلم كل شىء عن السماء : عن ملكوت الله وحده ولا مكان فيها إطلاق للعالميّات . يدخلها ذاك الذى خنقه غرور الحياة فيجد نفسه على الفور فى عالم آخر : يتحدث كل ما فيه عن ذلك العالم غير المنظور بلغته وألحانه وفنونه بل وبرائحته أيضا .

والسعى للنزول باللغة الكنسية المقدسة الى لغة العالم والى تحويل الكنيسة لتتماشى مع ما يسمونه « مودرنيزم » لن يؤدى إلا الى تلك البلبلة وذلك الشطط الذى نراه الآن حادثا فى بعض الأوساط الكنسية الغربية . وقد عبّر مؤتمر أساقفة الكنيسة الشرقية سنة ١٨٤٨ عن هذا الواقع الأليم فى قرارهم : « إن البابا

(٢) خروج ٢٥:٤٠ .
(٣) تكوين ١:١٠ ، ١٨ ، ٢ ، ٥ ، ٣١ .
(٤) أشعياء ٦:١
(٥) رؤيا ـــ الأصحاح الرابع بأكمله

الرومانى ، مع تعبيره بالألفاظ عن احترامه للتقاليد الرسولية ، ممتلىء شهوة للتجديد فى الأمور المقدسة ؛ إنه يمزج سم المودرنيزم فى كأس الرب نفسه ! » فحاشا لنا أن ندع هذا المنهج يبدّل جلال تعاليمنا وطقوسنا . ولندع وصية الرب وروح رسله هم والآباء الرسوليين تبقى معنا دائما : فالوفاء هنا هو ضمان قوتنا .

٢ ــ « يسوع المسيح نور العالم فى الأيقونوغرافية الأرثوذكسية »

الكلمة والصورة ــ إنه فى أيقونات الكنيسة الأرثوذكسية يسطع المظهر الديناميكى لإيمانها : فالأيقونة تعبر عن عمل الله المستمر فى الكنيسة وفى فنها وفى لاهوتها : فالصورة والكلمة تعبّران عن الحقيقة الواحدة فى تعليم الكنيسة . ويقول القديس باسيليوس الكبير (واضع قداس) : « إن ذلك الذى يعلنه اللفظ بالصوت تعلنه الأيقونة بالصمت . »

ولأن الفن يمتد الى ما بعد حدود المحسوس ــ ما بعد الواقع الحاضر ــ فهو يهدف الى اللامحسوس . والأيقونة فن ليتورجى وبالتالى فهى تعبير خاص للحقائق الخريستولوجية . إنها تستهدف أن تفتح عيوننا على عالم عميق أبعد من متناولنا وأن تقول لنا إن هذا العالم ذو معنى لحواسنا المحدودة . إن الأيقونة نافذة على الأبدية .

ولأن نعترف بأن يسوع المسيح هو حياة العالم معناه التحدّث عن سر التجسّد . والآباء يعلّمونا بأن الله صار جسداً لكى نتشارك معه فيما هو له : نتشارك فى حياته . والحياة تكتمل فى الرؤيا الأبدية فى حضرة الله . وليس هناك ما هو شاهد على هذا الاكتمال كالأيقونة التى تكسر حواجز الكلمة المنطوق بها لتعلو بالروح نحو العزة الإلهية .

والفن الأيقونوغرافى مؤسس على تجسد السيد المسيح . لأنه حين صار السيد المسيح إنسانا فالله اللامرئى اللامادى اللامحدود قد صار جسداً مرئيا ماديا محدوداً

(١) هو كاهن فى « دير قالامو الجديد » للكنيسة الأرثوذكسية فى فنلندا ، وأستاذ فى كلية اللاهوت بمدينة كيووبو بفنلندا . ومقاله منشور فى المجلة عيها حـ ٤ عدد ١ (يناير . فبراير . مارس) سنة ١٩٨٥ ، ص ٢٨ــ٣٦ .

فيه . والتجسد للكنيسة هو واقع تاريخى وأساس الخلاص . وفى دفاعهم عن الأيقونات وتوقيرها ارتكن آباء المجامع على الطبيعة الإنسانية للسيد المسيح . فالله أبعد من أن يوصف ، ولكن المسيح يسوع أعلن : « من رآنى فقد رأى الآب » (يوحنا ١٤ : ٩) . ولهذا السبب عينه يجب أن نرضى ونفرح بصورة السيد المسيح لأنه جعل الآب معروفا لنا . ونحن نصف السيد المسيح ونصوّره ونعبده بالتخصيص على أنه الله الثالوث وليس بمفرده .

والأيقونة تحمى ملء عقيدة التجسد . ويؤكد لنا الأب دوميترو ستانيلاو كيف أن أيقونات السيد المسيح تخدم بكونها تأييد ودليل راسخ يشير الى الصورة المثلى « لله ــ الإنسان » فى السيد المسيح . والأيقونة هى فى الوقت عينه تذكير مستمر لملء إنسانية الكلمة المتجسد .

الأيقونات كجزء من تعليم الكنيسة ــ إن الأيقونات التى تصف السيد المسيح على نوعين : أولا ــ ما تصف حوادث الانجيل حيث يعيش السيد المسيح مع الناس ويعمل بينهم . ثانيا ــ تلك التى تهدف الى إعطائنا عناصر عقيدية رئيسية كالمعمودية والتجلّى والصلب والقيامة والصعود .

وضمن الدوائر المسيحية الأولى كان السيد المسيح كثيراً ما يُرسم رمزيا كسمكة أو حمل أو مرساة . وبالتدريج تحوّلت هذه الرموز الى الشكل الإنسانى لأن الآباء علّموا بأن الرمز قد أصبح واقعاً . فظهرت منذ القرن الرابع أيقونات للسيد المسيح تصوره معلما أو واعظا أو راعيا أو ملكا . وكانت هذه الأيقونات وسيلة لتعليم من يجهلون القراءة ، وهى لازالت الى الآن الوسيلة عينها .

وهناك أيقونة نالت شعبية عظمى هى المستقاة من قول المرنّم : « أنت أبرع جمالاً من بنى البشر .إنسكبت النعمة من شفتيك لذلك باركك الله » (مز ٤٥ : ٢) . إذ كانوا فى فرحتهم بربهم يركّزون على ناحيته المبهجة . وبالإجمال فالأيقونات تعلن السيد المسيح « الله ــ الإنسان » الذى جمع فى تجسده التجلّى مع شكل العبد .

وإجابة السيد المسيح لبيلاطس « مملكتى ليست من هذا العالم » (يوحنا ١٨:١٦) هى بالضبط تلك الأيقونة الشائعة فى الفن الأرثوذكسى : أيقونة هذا المسيح الملك الذى تعلو مملكته الزمان والفضاء وتشمل العالم بأسره . إنه « ضابط الكل » الذى تبارك يده كل الخليقة . إنه « صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة » (كولوسى ١:٥) .

الأيقونات التى تشير الى التأمل ــ إن الكثير من أيقونات السيد المسيح والقديسين فى تاريخ الكنيسة هى نماذج تستنهض من يراها الى التأمل . وهذا النمو الروحى نحو التطهّر والاستنارة والتألّه يتطلب الوقت والصمت والانفراد وتمحيص النفس . وهناك بعض المعاصرين يركّزون على تصوير السيد المسيح وهو يصنع العجائب ويتحرك وسط الجماهير ويتنقّل من مكان الى آخر . ومع أنه عاش بهذه الانشغالات إلا أننا ننسى أنه كثيراً ما كان ينفرد وحده ، بعيداً عن الجماهير ، ليصلى . إنه كان رجل الوحدة يتسلق جبلا ليكون وحيداً يفكر فى هذا العالم وفى عمله فيه ، وليُعدّ ذاته لتلك التضحية الفريدة على مدى الأزمان لبذل ذاته على الصليب ليفتدى الإنسان . وهذه الناحية التأملية مسجّلة فيما كتبه البشيرون الأربعة فيجب أن لا ننساها .

الأيقونة والكنيسة ــ يقول الأب كاليستوس « إن الأيقونات التى تملأ الكنيسة هى نقطة إلتقاء بين السماء والأرض . فحينما نصلى فى الكنيسة نكون محاطين بشخصيات السيد المسيح والملائكة والقديسين . وهذه الأيقونات المرئية تذكّرنا بالحضرة اللامرئية للسمائيين بيننا . »

والكنيسة هى التى تتقبّل الأيقونات بإعزاز وتباركها وتدخل ضمن الدورة الليتورجية . والمهارة ودقة التعبير ليست بالصفات الكافية فى الأيقونوغرافى . بل يجب أن يكون رجل صلاة وتنسك . ويصفه اللاهوتى بول افدوكيموف بأنه « المجرى لانسياب النعمة والتأمل فى الأسرار الليتورجية . ولأن الأيقونة جزء من التقاليد يجب أن يهدف الأيقونوغرافى الى جعلها تعكس فكر الكنيسة » . ففى الكنيسة الأرثوذكسية يوصل لنا الفنان ، هو وكاتب الترانيم ، من خلال فنهما رؤيا

للعالم الروحى وللإيمان الذى تتمسك به الكنيسة .

والأيقونات تعبّر عن السر عينه للحياة فى السيد المسيح الذى تعبّر عنه الأسرار المقدسة . والإنسان يستخدم العالم المادى ليصف الكمال اللاموصوف للخليقة . والأرض والطين والخشب والحجر والعاج والمعادن الثمينة لها قيمة متساوية فى عينىّ الخالق مادامت مستَخدمة للتعبير عن قداسته وعمله المقدس . ومن هذا المنطلق فالكنيسة تستعمل البخور والشمع والزيت والحبوب كوسائل للتعبير عن نعمة الله . والسيد المسيح ذاته قد قال إنه حتى الحجارة الجامدة مستعدة لأن تهتف بمجد الله (لو ١٩: ٤٠) وباستعمالهم المواد الطبيعية فى الأيقونات يكرر الأرثوذكسيون اقتناعهم بأن المادة جزء من خليقة الله وعنايته فهى بذلك حسنة .

والبشائر الأربعة هى الأيقونات المكتوبة عن السيد المسيح ، إذن فكلٌ من الأسفار الإلهية والأيقونات جزء من التقاليد عينها . وإيقاد الشموع ورسم علامة الصليب وتقبيل الانجيل وتوقير الأيقونات والسير فى المواكب والسجود والانحناء — كل هذه هى جزء من التعدّ لله ومعطى الحياة يسوع المسيح .

والأيقونوغرافى حين يكون على وعى عميق برسالته يرسم أيقونته بحيث يبدو كأن النور ينبثق من خلفها . وأروع الأيقونات يشعّ منها النور من كل نواحيها إشارة الى أن نور التجلى الذى توضحه ساطع خلال تلك الخليقة . وفى ذلك يقول اللاهوتى نيكولاس زيموف : « إن الأيقونات مظاهر ديناميكية لقوة الإنسان الروحية لإمكانياته بأن يفتدى الخليقة بالفن والجمال . وباستعمالهم ألوانا معينة وتعبيرات خاصة يستهدف الأيقونوغرافيون أن يوضحوا بأن الناس والحيوان والنبات وكل الكون يمكن إنقاذه من حالة السقوط وإعادته الى « صورته » الأولى . إن الأيقونات هى عربون الانتصار والوصول بالخليقة كلها الى الفداء « لأن انتظار الخليقة يتوقّع استعلان أبناء الله ... فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخّض معا الى الآن » . (رومية ٨: ١٩—٢٢) .

اللامنظور : إنها تمتد الى عمق سر الله . والحنين الكامن داخل النفس الإنسانية نراه واضحاً الآن فى تحسس الشباب للروحانيّات . هذا الحنين إن هو إلا دليل على الحاجة إلى التأمل . والأيقونات تشير الى هذا السر الخفى فى الإنسان . وهى تشير أيضا الى أن الزمن فقد أهميّته . إنها شاهد للحياة بلا نهاية يعيشها فى وسطنا المؤمنون المنتقلون : الآباء والبطاركة والأنبياء والرسل والكارزون والشهداء والمعترفون والنسّاك والأرواح البررة الذين تكمّلوا فى الإيمان . إنها تبرز لنا الكنيسة المنتصرة التى لن تقوى أبواب الجحيم عليها .

٣ ــ « التجلّى فى ضوء الأيقونة » للراهبة دونا كريستوف (رهبنة الدم المقدس)[1]

« وأما الرب فهو الروح وحيث روح الرب هناك حرية . ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما فى مرآة نتغيّر الى تلك الصورة عينها من مجد الى مجد كما فى الرب » . (٢ كورنثوس ٣:١٧ــ١٨) .

لقد درجنا على الرضى بأن الإنسان خُلق على صورة الله ومثاله . ولكننا نتعلم من القديس بولس الرسول أن هذا الخلق ليس مجرد حَدَث حصلنا عليه وانتهى الأمر ، بل إن هذا « التصوير » للإنسان عملية مستمرة تتطلب روح الله وتجاوب حرية الإنسان ؛ إنه لقاء شخصى بين الله والإنسان ــ إذ كيف يمكن النظر بوجه مكشوف من غير هذا اللقاء ؟ وأخيراً فإن هذا اللقا يحوّل ويجدد ويعيد خلقة الإنسان الى ابن للنور : ابن لله .

الأيقونة كصورة :

« إن الأيقونة » ، تبعاً لتعريف رئيس الكهنة بافيل فلورنسكى ، « تنتمى الى ذلك الفن « الهابط » . والصورة الهابطة هى حقائق صادقة مطلقة تنبعث من فوق الى تجسيدات بلغةٍ رمزية يتفهّمها الإنسان » . وهذه الصورة المعلِنة

(١) المجلة عينها حـ ٧ عدد ٤ (أكتوبر نوفمبر ديسمبر) سنة ٩٨٦ . ص ١٣ــ٢٧

لحضرة من الرؤيا السماوية يكشفها الله مجانا للنفس التى ترتفع بهذا عينه الى العالم اللامرئى . وكما أن النافذة لا تشبه النور الذى يمرّ منها ، ولكنها ذلك النور عينه بمدى عملها كنافذة موصلة للنور ، هكذا الأيقونة ليست الرؤيا عينها ، ولكنها بمدى ما ترسم اللامرئى هى لإدراكنا صورته بعينها .

فى حين أن يوحنا الدمشقى قال : « حين نوقّر الأيقونات فنحن لا نرفع التوقير الى المادة لكننا عن طريق الأيقونة نوقّر الشخص المرسوم » . وحتى فيما قبل القديس الدمشقى رأى المتأملون فى الإلهيّات أن العالم المرئى بالحواس يخدم الإنسان برفعه الى عالم الروح . فلقد هتف المرنم : « يوم الى يوم يبدى كلاما وليل الى ليل يبدى علما » (مزمور ١٩:٢) . ويؤكد الأسقف ليونتيوس (ممن حضروا المجمع المسكونى الأول) لازمنية الصلة بين الأيقونة والمرسوم فيها معلنا أنها صلة كونية[٣] فيصفها بأنها نزول من الله الى القديس ثم نزول من القديس الى الأيقونة ؛ بل يمتد الى القول عنها بأنها صلة دائرية : من الله الى القديس فالعودة الى الله .

ومن الضرورى أن نتمعن الصلة بين الأيقونة وبين تجسد ابن الله لأن هذا يوصلنا الى القلب من الموضوع . فلقد قال لنا الآباء : « فى القديم كان الله اللاجسدى اللامحدود لا يُرسم إطلاقا . أما الآن فنرى الله متجسداً يمشى بين الناس ويتحدث اليهم فنرسم صورة لله الذى نراه : « الذى كان من البدء الذى سمعناه الذى رأيناه بعيوننا الذى شاهدناه ولمسته أيدينا » (١ يوحنا ١:١) . فنحن إذن لا نعبد المادة وإنما نعبد إله المادة الذى صار مادة من أجلنا وتنازل لأن يسكن المادة وأن يحقق خلاصنا من خلال المادة » . وهذا التعبير يتضمن لبّ العقيدة عن الأيقونات . وبما أن الواقع هو أن ابن الله وُلد من أم « إنسانة » كما هو ساطع فى الانجيل وجب علينا أن نذكر ناسوته . ولهذا السبب بعينه يجب أن لا نرسم الله الآب إطلاقا إذ أن الانجيل نفسه كلما تكلم عن ظهور الآب ذكر أنه صوت من السماء . ففى مرات ثلاث تكلّم عن هذا الظهور : فى المعمودية (متى ٣:١٧) ، ساعة التجلّى (متى ١٧:٥) ثم حين

طلب اليه السيد المسيح أن يمجد اسمه « فجاء صوت من السماء مجّدت وأمجد أيضا » (يوحنا ١٢:٢٨) .

الأيقونة أساسا التجسد الإلهى : ومن هذا المنطلَق فواقعية وجود الأيقونة مؤسسة على التجسد الإلهى ؛ ورسوخ التجسد الإلهى تعلنه الأيقونة وتؤكده . ولهذا السبب ففى نظر الكنيسة الأرثوذكسية يكون إنكار أيقونة السيد المسيح بمثابة إنكار لواقعية ناسوته ولرسوخ هذه الواقعية . وهذا معناه إنكار للتدبير الإلهى .

والنظر إلى أيقونة السيد المسيح يصل بالإنسان الى معرفة المجد الإلهى . إذن فليس ما هو معروض أمامنا بالهدف المقصود ولكن كيفية عرضه هى الهدف . ويقول اللاهوتى المعاصر أوسبنسكى : « إن الثالوث مع اختلافه أقنوميا هو واحد بالجوهر ، والأيقونة متطابقة أقنوميا لكنها تختلف طبيعيا . إذن فالأيقونة مرتبطة بالشخص الذى تعرضه فتهىء إمكانية التواصل معه . لهذا فأيقونة السيد المسيح تصوره بوصفه الكلمة صار جسداً وبالتالى تقدمه إنسانا يشعّ نوراً » . فالأيقونة بهذا الوضع قد جعلها الآباء غلى قدم المساواة مع الأسفار الإلهية إذ هى تتضّمن الحقيقة العقيدية والليتورجية عينها . إنها ليست صورة إنما تذكير ؛ إنها تتحدث الى العين كما يتحدث الكتاب الى الأذن فتحمل المعنى واضحاً لمن يتبصّرها .

الأيقونة فن مقدس ــ والأيقونة ليست عملاً تاما مفهوما على حدة ؛ إنها فى الحقيقة جوهرها جزءٌ من الليتورجيا ــ وفى هذا الأطار وحده فهمها وتفسيرها . إنها لاهوت بالصورة أو هى لاهوت بالألوان . بل هى قمة الصمت . والصمت من مستلزمات التخشّع فى العبادة .

والفن الليتورجى ليس مجرد تقدمة الإنسان لله ــ بل هو فوق ذلك نزول الله فى وسطنا : فالإيمان يتلاقى مع الرؤيا والطبيعة تتلاقى مع النعمة والزمن يلمس الأبدية . إن الأيقونة تنقل وتشهد بصرياً لواقعية حقيقتين فى آنٍ واحد : الله والإنسان ، السماء والأرض . إنها نقطة مواجهة إذ هى « لابسة الله » ــ

ثيئوفورس » وهى تواصل بين أعضاء الكنيسة هنا وبين من سبقوهم الى الفردوس .

والأيقونة صلاة وتأمل تحوّلا الى فن . وحين ينضم الفن الرقيق الى العبادة ليصبح صلاة وتسبيحا يكتسب نعمة الأسرار المقدسة : إنه يعلن لنا الله الذى يكسر كل العلامات والرمز بحقه الصراح .

ووظيفة الأيقونة مسكونية كالأرثوذكسية نفسها : فالسر المنطوق به والسر المرسوم هما واحد ، باطنيا فى معناهما وعلينا فى التعبير عن هذا المعنى .

ويتوسّع اللاهوتى الانجليزى روبرث تافت فى تبيان روح الاتزان الصحيح داخل السر الرهيب والقداسة والتأمل التى تقوم كلها على التبادل المتكامل بين الأطار المعمارى والعمل الشعائرى والفن الأيقونى فى الا ختبار الأرثوذكسى الشرقى . وهكذا يتحقق سر تواصلنا مع القداس الإلهى الذى للكون المفدى ــ إنه تحقيق هنا لأورشليم السماوية . فيه نقترب الى البهاء الروحانى ونتلامس مع الجلال الإلهى اللاموصول اليه . والمسيحى الشرقى يعاين تسامى الخليقة وتقديسها ؛ بل بالحرى إنه يعاين جلال الظهور الإلهى الذى يدخل داخله ويقدسه ويؤلهه عن طريق النور السماوى المستعلَن له بالنعمة .

ويجب أن نذكر أن الأيقونة لا تُخترَع بل يجب أن تُستعلَن . فهى بذلك ليست تعبيراً ذاتيا لا موضوعيا : إنها عمل الكنيسة . بل إن الآباء يقولون بأن هذا الفن أصله من الله الخالق (الأيقونوغرافى الأول والأعظم الذى رسم صورة الإنسان) . ولما كان الإنسان على صورة الله ومثاله فقد أصبح أيقونوغرافيا .

والصورة المرئية كالصورة المنطوق بها فى الأسفار الإلهية لا توصل آراء إنسانية إنما هى مجرد الحقيقة الإلهية عينها . وبما أنه ليس هناك من يستطيع أن يعطى تقريراً عن الحياة الإلهية من نفسه وجب أن يكون الأيقونوغرافى شخصا اختبر الله ؛ اختبر الاستنارة ؛ اختبر التجلّى ليستطيع أن يتيقّن بالأمور التى لا تُرى . كذلك وجب أن يعيش حياة الكنيسة الليتورجية القدسية .

من هو الأيقونوغرافى — إذن فالأيقونة هى عمل إنسان متواضع تنساب ريشته طاعةً للحقيقة التى يخدمها ؛ طاعةً فى محبة وتأمل وتخشّع ؛ طاعةً تجعل رسمه صلاة .

ويتحدث فلورنسكى عن الأيقونات الأولى ثم عن استمرار الفكر الأيقونى فيقول : « ... إن الحقيقة الروحية الحية تظهر على مدى الأجيال ... وأحيانا يجرى الله العجائب عن طريقها لتتكشف حقيقتها كشهادة لأصالة روحانيّتها ولتسامى تطابقها مع الموضوع الذى تقدمه » .

ومن العجب بمكان أن التمسك بالقاعدة لم ينتج إطلاقا أيقونات متطابقة حتى حين يرسم الأيقونوغرافى نفسه موضوعا واحداً عدة مرات . فالأيقونة الجديدة وليدة اختبار جديد للحقيقة السماوية عينها . وهكذا يكشف الفن الأيقونوغرافى تدرجيا السرّ الأبدى للوحى الإلهى . وهو لا يحوّل المادة الى رسالة ناطقة تسبيحا لله خلال جسم إنسانى فقط ، ولكنه يحوّل أيضا العالم الحيوانى والنباتى الى خليقة جديدة . فالعالم المادى كله المرسوم بالخطوط والألوان هو مثل ملموس وعربون وافٍ للكون الذى افتُدى وأعيد الى صورته الأولى من التناغم والجمال والروحيّن . لأنه فى الأيقونة تحّولت المادة الى صور لله ولقديسيه .

ما فى الأيقونة من سر — والأسمى فى هذا كله أن المواد المتواضعة المقدمة فى الأيقونة كعطيةٍ لله تؤكد فى أطارها الليتورجى التحوّل الأعلى بالروح القدس الذى يتحقق فى العطية البسيطة من الخبز والخمر ؛ فهما ثمار الأرض وثمار الأيدى الإنسانية ؛ وهما مادة الحياة الإنسانية — وهما بذاتهما يصيران الجسد المقدس والدم الكريم اللذيْن للسيد المسيح . وعلى هذا التفهّم للسر المقدس نتفهم كيف أن الأيقونة تشهد لتجلى الإنسان الى كينونته أيقونة حية لله الذى أبدعه .

ويعلن القديس يوحنا الدمشقى : « إن الأيقونة هى ترنيمة انتصار واستعلان ومَعلَم فاقٍ لنصرة القديسين واندحار الشياطين » . بينما يبيّن القديس غريغوريوس بالاماس (الأرمنى) بأن « الأيقونة ترينا جسد القديس وقد تحرر من الخطية ، متشاركا الى حدٍ ما فى خاصيات الجسد الروحانى الذى سنناله فى قيامة الأبرار » .

أما افدوكيموف فيصف الأثر الإيجابى للأيقونة بقوله : « إن تنقية القلب تأتى أولاً بأمثل معنى من الليتورجيا حيث تترابط الشعائر القدسية بالعقيدة والفن . وأيقوناتنا ترفع أنظارنا الى مستوى الحضرة الإلهية اللامرئية : إنها أشبه بالاستعلان الذى حدث للرآئى فى كونها تكشف ما هو كامن ومختبىء . وأنظارنا بعد أن تطهّرت بهذا الارتفاع وأصبحت ساهرة تستطيع أن تنزل الى العمل لتتفحّص داخلية النفس وتعلنها .

ونتعلم من المتعمّقين فى الهذيذ[1] إن قمة التأله هى رؤيا الله بوصفه النور الإلهى اللامخلوق : إنه النور اللامخلوق عينه الذى أحاط بالسيد المسيح على جبل التجلّى . ومع أن هذا النور يملأ العقل والحواس ويعلو فوقهما ؛ ومع كونه لا محسوس ولا مادى فمن الممكن أن يتفهّمه الإنسان الذى بلغ الى التأله . وفى هذا المعنى يقول أنبا مكارى الكبير : « مملكة النور ويسوع المسيح الملك السماوى يضىء الله منذ الآن سراً ويتملّك فى قلوب القديسين ؛ ومع ذلك فالسيد المسيح مختبىء عن عيون الناس الى يوم القيامة حينما يُستعاد الجسد ويتمجد بنور الرب الحاضر منذ الآن داخل النفس » . وهذا الإنسان المتجلّى جسما وروحا المحاط بالنور هو الذى تنقله الينا الأيقونة . والهالة المحيطة بالرأس استعلان للسطوع الداخلى وللاستنارة اللتين وشّحه بهما النور اللامخلوق : نور النعمة الإلهية .

النور الباعث التجلّى ــ وارتكاناً على قول بولس الرسول « لأنكم كنتم قبلا ظلمة أما الآن فنور فى الرب » (أفسس ٥:٨) يتوسّع رئيس الكهنة فلورنسكى فى حديثه عن النور بوصفه سِمة أساسية فى رسم الأيقونة فيقابل بين النور والظلمة ، بين الله والشيطان ، بين الكينونة والعدم ، وبين النشاط الحيوى الإيجابى والموت . وهو يبرز رسول الأمم كمرشد للإنسان الذى وُلد فى الظلمة ثم صار ابناً للنور . وعملية التحوّل هذه يعمل بموجبها الأيقونوغرافى . فالنور فى رسم الأيقونة ليس أمراً إضافيا خارجيا بل إنه ضرورى ضرورة الأشخاص المرسومين .

(١) هم الذين يتلذذون بالصلاة بلا انقطاع فى السر وفى العلن ، قال عنهم المرنم فى المزمور الكبير فى آياته : ١٥ و ٢٤ و ٤٧ و ٥٤ و ٩٧ و ١٢٧ و ١٦٢ .

فالنور فى الأيقونة هو الهدف المقصود .

والنور الإلهى يتخلل كل الأشياء ، لهذا فليس هناك مصدر يضىء المرسومات من هذه الناحية أو تلك ؛ وهذه المرسومات لا ظلّ لها إذ لا وجود للظلال فى ملكوت الله . والكل يغمرهم النور . ويقول الايقونوغرافيون ، بلغتهم الفني ، إن « النور » هو خلفية الأيقونة .

والذهب لا يرمز الى شىء فى الأيقونات لأنه ، فى المبدأ الأيقونوغرافى ، ليس لونا . لأن الألوان تعكس النور أما الذهب فهو نور خالص صافٍ . بل إن الألوان نفسها ، فى استخدامهم إياها ، يضفون عليها نوعا من الشفافية . والذهب يُستعمل للخلفية وللهالة . فالخلفية الذهبيةتشير الى المستَنَد الإلهى للخليقة فى حين أن الهالة تعبير عن القداسة التى وصل اليها وثيقو الصلة بالله ؛ أو هى انعكاس النور الإلهى المعلِن بأن هؤلاء الوثيقى الصلة بالله قد تساموا الى التشبّه باللوغس. وهكذا يتضح التأله خلال الأيقونة التى تصبح بذلك شاهداً على إمكانية وصول الإنسان الى هذه القمة .

أيقونة التجلى ــ يليق بنا توضيح معنى الأيقونة وقيمتها فى لاهوت الأرثوذكسية الشرقية بالصعود الى جبل تابور : فالتجلّى هو ظهور بالدرجة المثلى للثالوث الأقدس : ظهر فيه السيد المسيح بوصفه أقنوماً للثالوث المتساوى فى طبيعته الإلهية وفى جوهره . وفى هذا المعنى يقول القديس غريغوريوس بالاماس : « إن الآب بصوته شهد لابنه الحبيب ، والروح القدس ساطع معه فى بهاء السحابة النيّرة مشيراً الى أن الابن يمتلك مع الآب النور الواحد كما يمتلك كل الغنى الذى يتّسم به الآب » . ويعبر القديس يوحنا الدمشقى عن هذه الحقيقة عينها كما يلى : « لأن المجد لم يَاتِ نحو الجسد من الخارج بل من الداخل من الألوهة العليا الكامنة فى الكلمة المتجسد » .

والنور فى تجلى الرب لم تكن له بداية ولا نهاية : نور لا يحدّه زمن ولا فضاء . إنه نور لا مدرَك بالحواس ولو أن الرسل رأوه بأعينهم ... بل إذ قد رُفعت

حواسهم انتقلوا من الجسد الى الروح . وفى التجلّى نجد المجد الإلهى يظهر للإنسان والإنسانية نفسها تظهر فى المجد الإلهى . فالاستعادة الكاملة والتسامى الأمثل لكل الأشياء فى التدبير الإلهى للخلاص ومن خلاله وضحا فى نقش ممتلىء حياة .

ونسمع السيد المسيح يتكلم على فم أنستاسيوس السينائى : « إنه هكذا سيسطع الأبرار عند القيامة ؛ إنهم هكذا سيتمجدون والى حالتى سيتجلّون الى هذا الشكل وهذه الصورة وهذه البصمة وهذا النور وهذه الطوباوية ، وبتطابقهم سيملكون معى أنا ابن الله » .

أما الأنبا مكارى الكبير فيعلن : « فى يوم القيامة سيأتى مجد الروح القدس من الداخل » ، بل إنه يترنّم « إن نعمة هذا الروح الأقدس سيسطع كالنجم على الأبرار ؛ وفى وسطهم ستسطع أنت أيها الشمس الذى لا يدنى منه . وسيستنير الجميع بمدى تطهّرهم واستضاءتهم بالروح القدس الذى يرفعهم اليك أيها الإله الأوحد اللانهائى الرأفة » .

الخلاصـــة

وخير ما نختتم به هذا الاتجاه الواسع نحو الأرثوذكسية الشرقية هو أن دم الشهداء فى القرن العشرين أروى بذرة الإيمان بالضبط كما أرواها فى العصور الأولى . فلقد بطشت الشيوعية من سنة ١٩٢٠ بالكنيسة فى روسيا أولاً ثم امتدّ بطشها الى كل البلاد التى سيطرت عليها . واستمرّ بطشها خمسين سنة . وبعد نصف قرن من الاضطهاد المرير انتصرت الكنيسة على مضطهديها : انتصرت داخل البلاد الشيوعية نفسها . ومن الأدلة على هذا الأنتصار مقال نشره إدموند ستيفنز مراسل التيمس الانجليزية فى موسكو بعنوان : « الملايين فى روسيا (الملحدة) تشترك فى الاحتفال بعيد القيامة المجيدة » ، وصدّر مقاله هذا بجملة : « التقاليد العائلية تستمر على الرغم من الدعايات الملحدة » . وقد جاء فى المقال :

« هناك ملايين من الناس فى الاتحاد السوفيتى قد احتفلوا رسميا بعيد القيامة المجيدة تبعاً للتقويم الشرقى الذى تسير الكنيسة الأرثوذكسية بموجبه » .

« وقمة الشعائر الدينية كانت فى الليل ثم استمرت الى الرابعة صباحا . وهى شعائر ذات ألحان لا مثيل لها ، ومواكب بهية فائقة وملابس كهنوتية فاتنة الجمال . ففى كتدرائية بيلوكوفسكى رأس البطريرك بيمن — بطريرك جميع الروس — هذه الصلوات ذات الروعة الخاصة ؛ وفى عظته تحدث عن أهمية السلام العالمى » .

« وقد ازدحمت الكتدرائية بالجماهير الزاخرة مما اضطر بعضهم — حين لم يجدوا ولا وطأة قدم — الى الإسراع بسيارته مسافة أربعين ميلاً ليحضر الشعائر فى سيرجى : فى كنيسة تحمل اسم الثالوث المقدس المعدودة من أقدس الأماكن » .

« ولقد وقفت طوابير طويلة طوال أمس يحمل كل شخص فيها فوطة ملفوفة بداخلها كعكة القيامة ، ليباركها الكاهن . وعيد القيامة تقليديا هو اليوم الذى تتجمع فيه العائلات وأصدقاؤها فى البيوت . فالقيامة هى العيد الرئيسى الكبير للكنيسة الأرثوذكسية الروسية. ولم تفلح كل الضغوط الإرهابية اللادينية فى هدم النزعة الروحية التقليدية . وهى لم تفشل فقط أمام المؤمنين ذوى الإيمان الراسخ بل فشلت أيضا حتى أمام عدد كبير من الأعضاء البارزين فى الحزب الشيوعى كما نراه واضحا فى مقال يفيض بالخيبة كتبه صحفى فى الجريدة اليومية « موسكوفسكى كومسومولتس » . ومما ذكره أن شابتين على كتف كل منهما الوشاح الأحمر الخاص بعضوية الحزب كانتا واقفتين فى الطابور أمام باب الكنيسة تحمل كل منهما فوطة كعكة العيد لكى يباركها الكاهن . وحين اعترض عليهما بأن مثل هذا الموقف لا يليق بعضو أصيل فى الحزب ، شدّت إحداهما نفسها فى انتصابة من الاعتزاز وقالت : ولكننا روسيات أيضا ؟ »

٤ ــ « أربعة أيقونات تعييدية » لماريا تلينيف[١]

« ولا تشاكلوا هذا الدهر بل تغيّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم » (رومية ١٢:٢) . إننا ، جسد الكنيسة على الأرض ، خليقة جديدة بسبب تنازل الله المذهل خلال التجسد ؛ بل إن الخليقة كلها قد تجددت بدخول السيد المسيح الى العالم . لذلك ففنون هذه الطريقة الجديدة للحياة ــ هذه العقيدة الأرثوذكسية ــ قد أصبحت وسيلة للارتفاع بالحياة « الى التحول الجميل » ؛ وسيلة روحانية لعقيدتنا مرتبطة بعالم آخر هى جزء منه . إنها لا تستهدف إرضاء انفعالاتنا الجسدية المتخضمة ، بل هى بالأولى تهيب « بشهواتنا الروحية التى تغيّرت عن شكلها وتستدرجنا نحو خلاصنا . فالأيقونة إذن تنتصب كمعقَل للإيمان » .

وحتى رسم الأيقونة يبدأ بالصلاة . فلنتأمل إحدى الصلوات الموضوعة لإرشاد الأيقونوغرافيين : « أيها السيد الرب يسوع المسيح إلهنا غير المحدود فى لاهوتك ؛ إنك جعلت ذاتك داخل حدود التعبير الإنسانى بتجسدك وبتأنسك من السيدة العذراء مريم والدة الإله .. يامن بالروح القدس قد منحت الحكمة لرسلك ، وللكارز لوقا ليرسم شكل تلك الممتلئة نعمة ؛ فحملتك على ذراعيها وقالت : فلتكن نعمة ذاك الذى وُلد منى تنساب من خلالى اليهم . وعلى هذا المثال أشرق بنورك وبحكمتك على نفس عبدك وقلبه وعقله ؛ إرشد يديه ليرسم شكل شخصك ، وشكل السيدة العذراء أمك وملكتنا كلنا ؛ وأشكال قديسيك جميعا لتمجيدك ولمجد كنيستك المقدسة وبهائها وجمالها ؛ ولمغفرة خطايا كل الذين يقدّمون ولاءهم لها ويقبلّون فى خشوع هذه الأيقونات . افتدِ عبدك من كل أذى العدو وهو ينفّذ وصايا خدام كنيستك والعاملين فيها بمحبة ووفاء ــ أمين » .

وكل الأيقونات هى تجسيد لجوهر عقيدتنا ولتقاليد الرسولية . فأيقونة البشارة ، تحمل لنا كل ما جرى بين السيدة العذراء وبين الملاك المبشر وصلوات، يوم عيد

---

(١)عن المجلة نفسها حـ ٧ عدد ١ ، ص ٤٧ــ٥٣ .

البشارة (فى الكنيسة الروسية) غنية بتعبيرها عن هذا الواقع ، فإحدى الأناشيد تقول : « اليوم هو بداية خلاصنا واستعلان السرّ الأبدى . فابن الله يصبح ابناً للسيدة العذراء ؛ والملاك المبشر يعلن بشرى النعمة المفرحة . لهذا فلنهتف معه نحو والدة الإله قائلين : السلام لك أيتها الممتلئة نعمة الرب معك » . وهكذا تعبّر أيقونة البشارة ، فى لا زمنية زمنها ، كل هذه العناصر المقدسة . ويذكرنا القديس نيكولاس كاباسيلاس بأن التجسد ليس عمل الإرادة الإلهية وحدها ، بل هو يشمل الإرادة الحرة والإيمان التلقائى من السيدة العذراء .

وهنا يجب أن نرّن رنين التحذير : فلقد ركّز الغربيون على الحوار الذى جرى بطريقة يتلاشى معها التواصل بين الله والإنسان . وهناك من يرسمون السيدة العذراء واقفة فوق حية كأنها هى المسئولة عن إخضاع قوى السقوط متناسين أنها حواء المتجددة . ثم إن الآباء الأرثوذكسيون قد علّمونا بأن السيدة العذراء ، ساعة وصول الملاك اليها ، كانت ممسكة بمغزل تغزل عليه . فحوّل الغربيون هذا الوضع الطبيعى لفتاة من سبط يهوذا الى سيدة راكعة أمام منضدة عليها كتاب تقرأه . وبهذا التحول العقلانى أضاعوا سِمة رقيقة من الروحانية العذراوية : إنها صورة تبرز وتغطى تواضع « أمة الله » . ولقد حذّرنا رسول الأمم بأن العلم ينفخ والمحبة تبنى : والتواضع من سمات المحبة الحقّة .

الدموع والنار

مكان الدموع

كان للدموع فى الكنيسة فى عصورها الأولى مكان متكامل مع الحياة المسيحية . فقد تعمق الأوائل دراسة الشخصية وما أصابها من تفتّت نتيجة الخطية . ثم أوضحوا استعادة بنائها بنعمة الدموع معتبرينها ضرورة مطلقة . وبناءً على توضيحهم ، فالدموع معناها أن يضيّع الإنسان لكى يربح الحياة الحقيقية ؛ إنها مركز الجاذبية للحصول على محبة الله الغامرة وانعكاس هذه المحبة التى أوصلته الى إخلاء نفسه . ويجب أن نذكّر نفوسنا أن محبة الله بدأت منذ أن خلق العالم ثم بلغت قمتها فى السيد المسيح .

والتقاليد الدموعية لا تهدف الى محاكاة السيد المسيح . فليس هناك إنسان فى مقدوره أن يحاكيه . ولكن الذى فى مقدوره هو أن يسعَى قدر استطاعته ليحلّ ربه داخل نفسه الإنسانية بعد إخلائه نفسه . وهذا الحلول العجيب مخفَى داخلنا جزئيا عند خلقنا ، ثم يُستعلَن تدريجيا حين نكون مستعدين لأن نتفّتح لحياة الإخلاء الإلهى فنفسح أمامها السبيل لأن تفيض علينا .

مستوى واحد للجميع

وفى التقاليد الأولى كان هناك مستوى واحد لكافة المسيحيين سواءً منهم للمتزوج أو الأعزب . وكانت البتولية الحقة فى الفكر المسيحى الأول هى استقامة القلب والعفة النفسية فى الراهب والمتزوج سواءً بسواء . إذن فالتبّتل ليس محدوداً بالعزوبية . إنه يستلزم اختيار أمر واحد هو استعداد النفس لأن تكون مرآة تعكس حياة الله ؛ وأن تمتلىء رغبة فى الإخلاء الى حد استعلان الله فى حياتها اليومية فالعذارى الجاهلات لم يسعفهن بتوليتهن الجسدية .

الحصول على استقامة القلب

ولكن كيف يمكن الحصول على استقامة القلب ؟ ليست هناك وسيلة غير التمحيص النفسى . وهذا معناه الرضى بتعريض النفس لنور الله الذى يضىء ويحرق كل شائبة : النور الذى يخترق فيصدم النفس صدماً بإظهارها على حقيقتها . وهذا الصدام يحوّلها نحو التوبة وبالتالى نحو الدموع المنقّية المؤدية الى القداسة . فالله قد تجسد لكى يعتقنا من عبودية الخطية وعبودية الخوف من الموت[1] . وإحدى المعانى الأصيلة لكل « خلاص » هى « الانتشال من المصيدة » .

والإنسان يتوهّم بأنه يستطيع التحكم فى نفسه بنفسه . ورغبته هذه تصل به الى العبودية ، لأن أهدافه محدودة ولن توصّله إلا الى طريق مسدود . صحيح أنه قد يحس بشىء من الأمان ولكنه حتما سيفقد إمكانّياته . والخلاص ، الانتشال من المصيدة ، معناه الإمكانيات . فلقد ارتفع السيد المسيح على الصليب لكى يشفينا من سم رغبتنا فى القبض على ناحية التحكّم فى كل شىء بل وفى كل إنسان ؛ ولكى يرينا أنه باعترافنا الإرادى بعظم ضعفنا يستطيع الله أن يدخل فينا ويسكب محبته الدافقة داخلنا .

الحزن ــ المطانية

والحزن المرتبط بالتوبة : المطانية المؤدية الى التغيّر الجذرى حزن مستمر . ومادام الاتجاه نحو الله مستمراً ومتصاعداً فعملية التحوّل العضوى ــ أى عملية التأله ــ تستمر معه . والدموع تتناغم مع هذا الاستمرار . وهذه الدموع علامة على أن الروح القدس يعمل فى الشخص المستعد وعلى وجود الاستعداد الإنسانى أيضا . إن هذه الدموع هى الإخلاء المتبادَل للمحبة بين الله والنفس ولا صلة لها إطلاقا بالأسى . ومن العجيب أن الدموع العاطفية للفرح أو للحزن لا تلبث أن تخفّ ، فى حين أن الدموع المقدسة لا تنتهى . وجراحاتنا الممتزجة بالإخلاء المتحدة مع الجراحات الإلهية هى بداية اقتبالنا الجسد الممجد .

(١) عبرانيين ٢ : ١٤ــ١٥ .

وفى عمق دموعنا نجدها دموع الله . فالله يبكى ـــ « يبكى يسوع » ـــ وإرادة الله نسباب من الدموع الإلهية الممتزجة بدموعنا ، لأن الرحمة الإلهية تتخلل كمل ألم « فى كل ضيقهم تضايق » ، إذن فهو يعرفنا بإرادته فى أن يتألم معنا .

وما يجب علينا أن نقوله لأولئك « المجروحين » من الله « الإرهابى » هو أن المطلوب من الإنسان أساسا ليست الفضيلة ولا الاستحقاق ؛ إنما المطلوب هو صرخة الثقة والمحبة من عمق جحيم وعيه بثقل الخطية . ولأولئك العارفين لحظة من الذعر والألم النفسى وسط باطنية الفرح الغامر نهيب بهم أن لا يسقطوا فى اليأس أبداً ، ولو ساورهم اليأس يرنمون على ذراعىّ الله . فلقد قال السيد المسيح للقديس سلوانس (روسى) : « دع ذهنك فى الجحيم ولكن إياك أن تيأس » . ففى أعماق الجحيم تتطلع النفس نحو الرحمة وهناك تجد ذاتها محبوبة . وهذه مطلبة مستديمة : فيكفّ العالم عن أن يكون لى « أنا » ويصبح عالم الله ؛ وهذا العالم المقلوب رأساً على عقب يصبح عالم التطويبات والتواصل . وعندها نفهم أن الألم والجحيم والموت منتشرين فى كل مكان بقوات الظلمة التى تجتاحنا كما نفهم فى الوقت عينه أن السيد المسيح هو الغالب الظافر . ونفهم أيضا أن الحياة التى أقيمت والنور والانتعاش الروحى ـــ كلها يمكن أن تتزايد فينا من أعماق أبعد غوراً تبعاً لمقياس إيماننا وتواضعنا فتفتح المجال لله لأن يجعل منا كائنات من العجب وأحيانا من البركة .

إذن فاجتيازنا الآلام ليس « عقاباً » ولا « تكفيراً » مفروضين علينا من إله ساخط علينا بسبب خطايانا ؛ إنه بالحرى الوعى بأن الله معنا فى مرورنا بهذا المكان الضيق وأنه يتألم معنا . وفى هذه الوحدة معه نجد الصمت[1] : نجد الهدوء . و « فى الله الصموت » نصل الى لحظة اللازمن حيث تتقاطع الخليقة

(١) وهذه الضرورة للصمت نسمعها فى نصيحة مصرية فرعونية هى : « أما فى الاقتراب من الله فاعلم أن الصراخ مكروهة عنده ؛ صلِّ إذن بقلب رغيب تختفى فى داخله كل كلمة ، والله يمحك حتياجك » . وبهذه الوجهة يتقدم العابد نحو إلهه كمت يتقدم الى ينبوع منعش فيهتف : « أيها البئر العذب للعطشان وسط الصحراء : إنه مغلق لمن يتكلم ولكنه مفتوح للصامت . ومتى جاء ذلك الذى يصمت فإنه سيجد البئر » ـــ عن كتاب « لماذا سكتنا » للمؤلفة ص ٣٥

بالأبدية ، ومنا نعرف أن كل واحد منا « متوحد » ؛ وأن المعنى الحقيقى للوحدة هى انعكاس لعملية الله التى تستلزم تجميع الخليقة كلها فى المحبة بدموعنا . وإذ نُخلى نفوسنا ونمتلىء بالحياة المنسابة من الله نصبح فنّانين عاملين مبتكرين منشغلين بعمل الله الفدائى : « الذى الآن أفرح فى آلامى لأجلكم وأكمل مطلَق شدائد المسيح فى جسمى لأجل جسده الذى هو الكنيسة » .[٢] .

الإنسان الصلاة

وعن طريق الدموع نصبح صلاة ، أو كما يقول اللاهوتى الفرنسى أوليفييه كليمون : « نصبح رافعين العالم كله على مذبح قلوبنا » وحينذاك لا تكون ظروف الفضاء ــ الزمنى التى تدفع بالقلب الى أن يخفق سجنا لا نهاية له بل تصبح هيكلا جدرانه من النور ، ويستشعر الإنسان السيد المسيح القائم وجه الآب فى الروح القدس . وعلينا أن نذكر أن الدموع المنسابة فى الصلاة هى مزيج من الحزن والتهليل : مزيج فريد به نصل الى أن نعرف أكثر فأكثر أننا نتفرّس فى وجه الله[٣] فتتحقق فينا العهود التى اتُخذت ساعة معموديتنا بهذا الانسياب المستمر لدموعنا الملتهبة خلال حياتنا فى الثالوث الأقدس إذ قد أصبحت محبته المغنطيسية الجذّابة لهذا التبادل الإخلائى غير المنقطع فنعرف أننا بهذه الوحدة نصل الى الحرية والى إمكانية الوعى بتلك اللحظة الأولى « فى البدء » ، وكذلك الى الوعى بأن الصمت يولّد الهذيذ .

المجازفــة

وأماننا الوحيد هو المجازفة : فنستمع عن غير علم ثم نعمل بالإيمان الواثق لما سمعناه أو حصلنا عليه . والدموع المنسابة هى القلب للمسيحية وهى الرجاء للعالم . فطريق الدموع النارية هو الاستسلام الخالص الى مقاصد الله التى تظل مجهولة والتى تتفتّح تدريجيا فى الصمت ــ أو كما يقول القديس اسحق النينوى : « من الصمت يستطيع الإنسان أن يحصل على ثلاثة أسباب للدموع : « محبة

(٢) كولوسى ١:٢٤

(٣) متى ١٨:١٠

الله والرهبة فى تعجب أمام أسراره وتواضع القلب » ... وليست هناك شهوة نارية كمحبة الله . فياالله إجعلنى مستحقا أن أتذوق من هذا الينبوع . »[1]

+ + +

عن الأنبا كيرلس الكبير عامود الدين : التجسد والافخارستيا

لماذ يُحسب هذا السر عظيما ؟ أليس لأننا نقول إن الذى أُرسل الى العالم هو كلمة الآب ونعترف بأنه جاء فى هيئة إنسان ؟ من أجل هذا فإن الجسد الذى اتحد به له قوة محييه ، فهو ليس جسداً غريبا بل هو جسد خاص بمن يستطيع أن يهب الحياة لكل الأشياء .

فكما أن النار فى عالم المحسوسات تستطيع أن تنقل قوتها الطبيعية الى أية مادة تلتصق بها ، حتى أنها يمكن أن تغيّر طبيعة الماء البارد الى طبيعة حارة ، فلا نعجبّن إذن أن كلمة الله الآب ، الذى هو الحياة بطبيعته ، يعطى الجسد المتحد به خاصيّة هذه الحياة .

فهذا الجسد هو الكلمة ، فهو ليس لكائن آخر إلا له نفسه ، الذى به حُسِب عضواً من جنس البشر[2] . فإن نحيت جانبا كلمة الله المحيى عن هذا الاتحاد السرّى الحقيقى بالجسد ، وأبعدت الكلمة كلية ، فكيف تبرهن على أن هذا الجسد مازال محييا ؟

أليس هو الذى قال : « من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فىّ وأنا فيه »[3] .

فإن كان الذى وُلد هو إنسان بطبيعته المنفصلة ، وإن لم يكن كلمة الله قد أتى الى حالنا (وليس جسدنا) ؛ لكان ما نمارسه (فى الأفخارستيا) هو نوع من أكل لحوم البشر ٨ ولكان الاشتراك فيه بلا فائدة على الإطلاق ، لأن أسمع

(١)عن مجلة « سوبورنوست » (بالانجليزية) ، مجلد ٩ عدد ١ سنة ١٩٨٧ ، ص ١ــ٢٣ ؛ من الشيق أن نعرف أن « سوبورنوست » كلمة روسية معناها « الفجر » .

(٢)« فإذ قد تشارك الأولاد فى اللحم والدم اشترك هو أيضا كذلك فيهما » ــ عبرانيين ٢ : ١٤ .

(٣) يوحنا ٦ : ٥٦

المسيح قائلاً « الروح يحى أما الجسد فلا يفيد شيئاً »[٤] .

إن أشعة النور المنبعثة من الشمس يمكن أن يقال عنها إنها مشعّة بسبب باعثها أو بسبب منبعها ؛ ولكن ليس لتجمّعها معا تعطى الضوء ، بل بسبب سمو مصدرها الطبيعى . فهى بذلك تعلن عن سمو منبعها أو بالحرى تبيّن بهاء مصدرها الذى أطلق هذا النور .

وعلى هذا القياس ، أظن أن الابن قد قال إنه يحيا بالآب[٥] ، مظهراً فى نفسه الرفعة التى يستمدها من الآب ، نافيا بذلك أن حياته ممنوحة له من خارجه كحال الأشياء المخلوقة عامة ، أى حياة ممنوحة من الخارج .

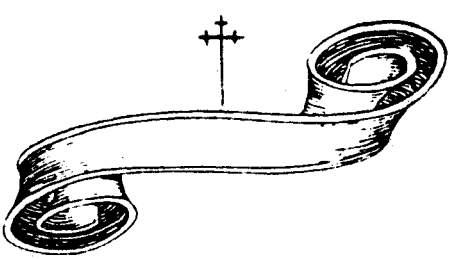

(٤) يوحنا ٦ : ٦٣

(٥) يوحنا ٦ : ٥٧

المراجـــع

1 - Vie et Lumière - Revue Trimestrille, Paris 1979 et 1980.
2 - Conferene of Orthodox Bishops, Geneva 1848.
3 - Liev Gilliet: "Orthodox Spirituality", London 1975.
4 - Times Daily, Monday April 26,1976, Edmond Stevens: "Millions in 'godless' Russia join in Easter Celebrations: Family traditions go on despite atheist propaganda".
5 - Sacred Art Journal: Orthodox Liturgical Arts
   a - Vol. IV, no. 3, July August, September, 1983; "Our Task in Iconography" by Archimandrite Cyprian.
   b - Vol. VI, no. 1, January, February, March, 1985, "Jesus Christ the Life of the Worl" by Fr. Ambrosius.
   c - Vol. VII, no. 1, january, Fabruary, 1986, "Four Festal Icons" by Maria Telepneff.
   d - Vol. VII, no. 40, October, November, DEcember, 1986, "Transfiguration: in the Light of the Icon" by Sr. Donna Kristoff, OSB.
6 - Sobornost Review, vol 9, no 1, London 1986.
7 - Iris Habib el Masri: "The Story of the Copts", Cairo 1977.

٨ ــ « قصة الكنيسة القبطية » للمؤلفة حـ ٥ ، نشرته مكتبة المحبة ــ القاهرة سنة ١٩٨٤ .

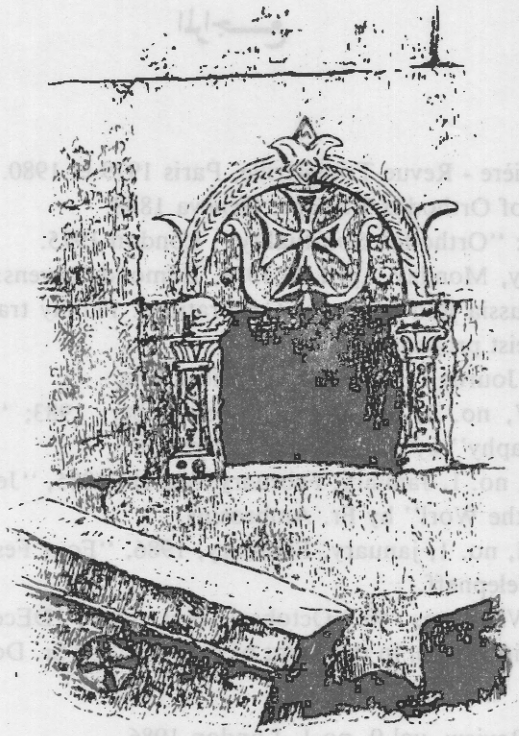

EARLY CHRISTIAN SHRINE, PHILÆ.

مقصورة مسيحية من العصور الأولى فى جزيرة فيلا
(عن كتاب « ألف ميل فوق النيل » بالانجليزية ، لآميليا ادوارد) ص ٢١٨

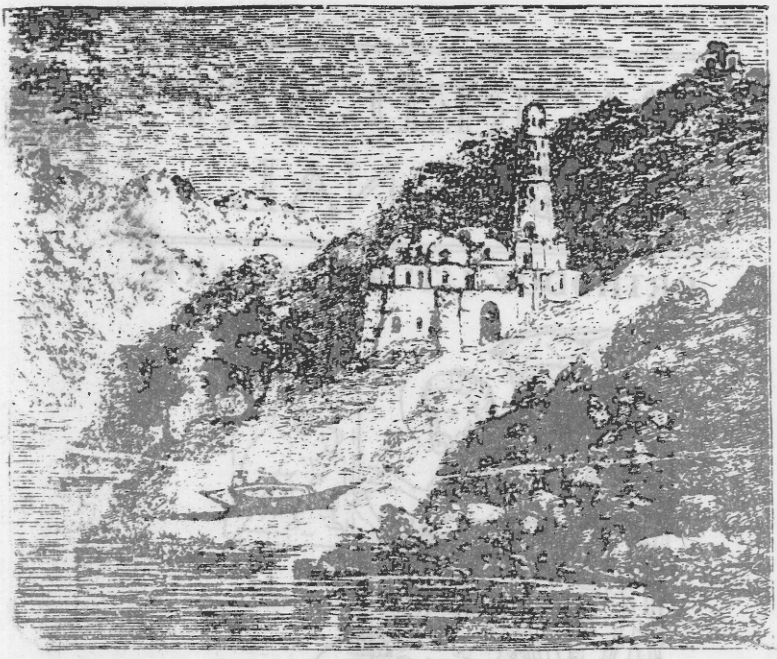

RUINED CONVENT (COPTIC) NEAR PHILÆ.

دير متخرّب (مرمّم) قرب فيلا

وكان هناك العدد الوفير من الكنائس والأديرة فى الصعيد الأعلى خرّبها الترك

(عن كتاب « ألف ميل فوق النيل » بالانجليزية ، لآميليا ادوار) ص ٣٨٣

SACRED ART JOURNAL

ORTHODOX LITURGICAL ARTS

ST. JOHN OF DAMASCUS ASSOCIATION
OF
ORTHODOX ICONOGRAPHERS, ICONOLOGISTS
AND ARCHITECTS

JANUARY-FEBRUARY, 1986 Volume VII, Number 1

الملاك يوجه القديس لوقا البشير أثناء رسمه لأيقونة السيدة العذراء

أيقونة الصعود
لواحد من أولاد كنيسة السيدة العذراء بالمليحة
(حدائق القبة)

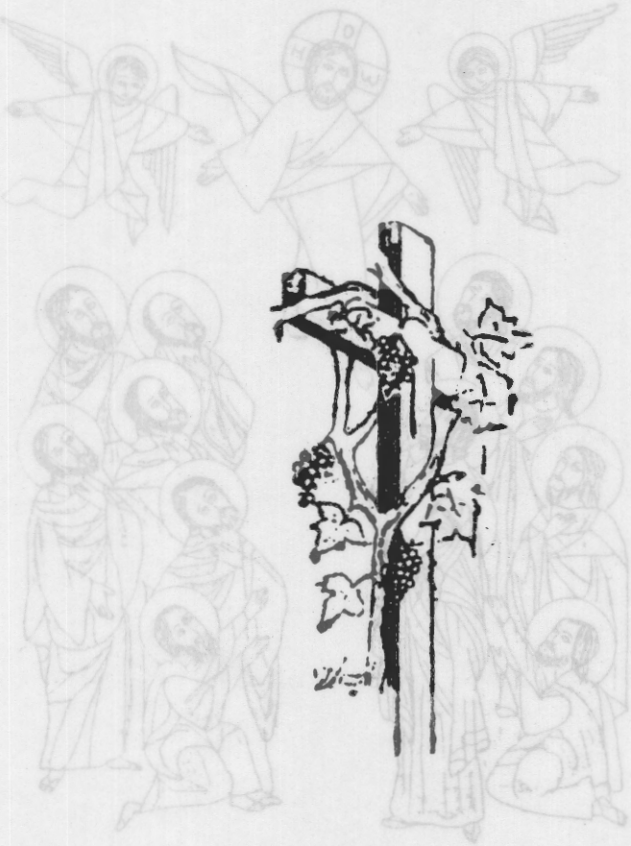

للمراسلات : ص . ب : ١٧ - الابراهيمية - الاسكندرية

ص
٦٠